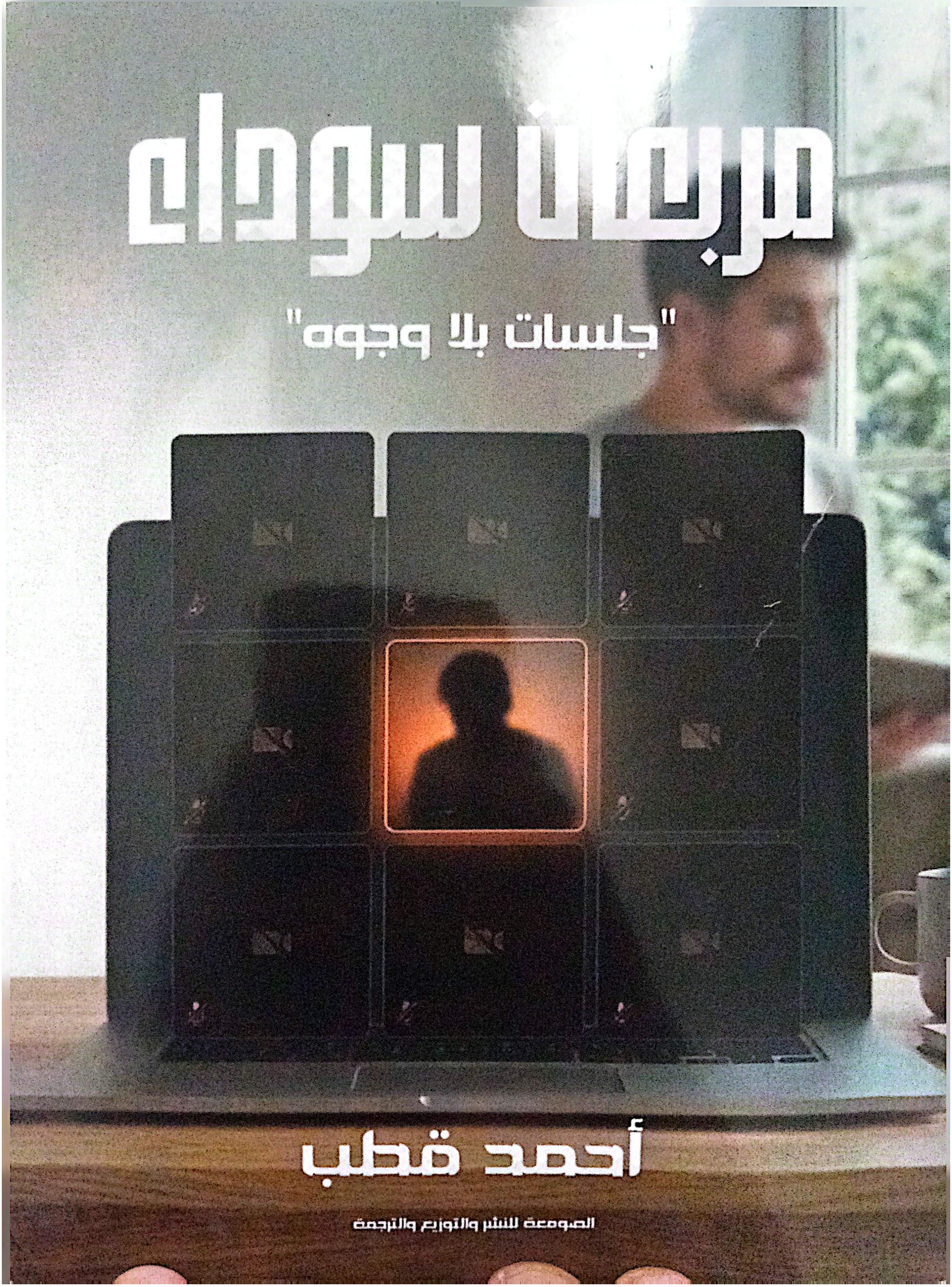


مربعات سوداء

"جلسات بلا وجوه"

أحمد قطب

الصومعة للنشر والتوزيع والترجمة

غادر الدكتور "وليد" مكتبه بالمستشفى، هابطاً الدرجات بخطًا متثاقلة. كانت السماء في الخارج تبكي بصمت، وكلُّ قطرة مطر ترتطم بالأرض كانت تُحدث صوتاً رتيباً، صدىً يتردد في ذاكرته ليوقظ أحلاماً ظنَّ أنها دُفنت .

تذكر منحة الدكتوراه التي أُغلقت فجأة برسالة بريد إلكتروني قصيرة، بلا تفسير، بلا وداع. منذ ذلك اليوم، لم يعُد يفتح بريده بعد منتصف الليل.

دلف إلى كافيتريا المستشفى هرباً من صقيع الجوّ، وضجيج أفكاره. هناك، في الزاوية المعتادة، وجد من ينتظره .

رجل في الخمسينيات من عمره، تحيط به هالة من الوقار والحكمة، يحتسي كوباً من القهوة الساخنة ليدفئ أوصاله في هذا الطقس البارد. لم يتبقَّ في رأسه سوى شعيرات بيضاء قليلة، يمشطها بعناية بعرض رأسه ليواري الصلع، بينما تستقرُّ على أنفه نظارة دائرية كلاسيكية.

صافَحه وليد بحرارة، ثم جلس أمامه، لتبدأ نظرات الرجل الخمسيني في تفحص ملامح تلميذه الشاب:

"إيه أخبارك يا وليد؟ شكلك كده مرهق ومطفِي" .

تنهَّد وليد، وهو يفكُّ أزرار معطفه:

"الحمد لله يا دكتور شريف.. ضغط الشغل بس" .

رمقه شريف بنظرة خبيرة من خلف نظارته الدائرية:

"حاول تفصل بين الشغل وحياتك.. إحنا دكاترة نفسيين آه، بس بشر برضه".

"والله يا دكتور بحاول.. بس مش سهل".

اعتدل شريف في جلسته، وسأله بجدية:

"المهم.. إيه خطتك بعد الدكتوراه؟ هتمشي في التراك الأكاديمي؟".

صمت وليد للحظة، وكأنه يجمع شتات فكرة تلمع في رأسه:

"بفكر أكتب كتاب.. بس مش أكاديمي ولا تنظير، بحاول أكتشف (Pattern) نمط معين في حياة البني آدمين، حاجة بتربطنا كلنا ببعض، المشكلة إن محدش من الحالات اللي بتابع معايا رضي إني أكتب عنه، حتى لو بأسماء مستعارة".

أخذ رشفة من قهوته، وأكمل بحماسة:

"لحد ما حد من صحابي اقترح عليا فكرة مجنونة شوية.. أعمل جلسات جماعية على (زوم) من غير كاميرا، وأجمع حالات متعرفش أي حاجة عن بعض. نزلت بوست على الفيس بوك، كتبت الفكرة وشرحت إني محتاج ناس تحكي وتفضفض، وهيبقى فيه جلسات فردية (أوفلاين).. وسيبت الإيميل بتاعي".

اتسعت عينا دكتور شريف باهتمام:

"والناس استجابت؟".

"أكتر مما كنت متخيل.. سبت البوست يوم واحد، رجعت لقيت أكتر من مية رسالة! قصص وحكايات تشيب.. قعدت أفلتر فيهم لحد ما استقريت على سبع شخصيات بس".

مدَّ وليد يده في جيب معطفه العميق، وأخرج مفكِّرة جلدية صغيرة، وناولها لأستاذه.

التقطها دكتور شريف، وبدأ يقرأ الملخصات المكتوبة بتمعن، يقلِّب الصفحات ببطء، وعيناه تمرَّان على السطور بتركيز شديد. بعد دقائق، أغلق المفكرة، ونظر إلى وليد سائلاً:

"اشمعنى دول بالذات؟".

أجابه وليد بنبرة تحمل يقيناً غريباً:

"وسط الرسائل، كان في ناس كثير قصصهم غريبة، وناس بتكذب بس دول أكتر ناس لحم ودم.. شبه الناس الحقيقية اللي بنقابلهم كل يوم ومبنعرفش هما شايلين إيه".

نظر دكتور شريف في ساعته، ثم نهض ململماً أغراضه:

"اختيار موفق يا وليد.. ربنا يوفقك في اللي جاي، بس خليك فاكر

يا وليد.. اللعب في حكايات الناس مش دايماً بيطلع منه كتاب، ساعات بيطلع منه جروح. أنا لازم أستأذن عشان ألحق ميعاد العيادة".

غادر شريف المكان، بينما ظلَّ وليد جالساً مكانه خلف الزجاج العريض للكافيتريا، يراقب المطر، وهو يغسل وجه المدينة، ويفكِّر في حكايات السبعة الذين اختارهم القدر ليكونوا أبطالاً لسطوره القادمة.

(الجلسة الأولى)

الثامنة إلا خمس دقائق مساءً.

يجلسُ أمام شاشة "اللابتوب" الخاص به، والتوتر يتسرَّب إلى أصابعه بطريقة غير مبررة. يتحدَّث إلى نفسه:

"لماذا أنا قلق هكذا؟ ليست هذه المرة الأولى التي أدير فيها جلسة حوارية مع مجموعة، لكنَّ "طابع" هذه الجلسة وتفاصيلها الغريبة هما ما يجعلان نبضي يتسارع."

ضغط على زر (Join) وبدأ ينتظر دخولهم.. في تلك اللحظة، راح يتأمَّل وجهه في انعكاس الكاميرا؛ يبدو أكبر قليلاً مما يظنُّ، فالشعر الأبيض بدأ يجتاح مساحات من لحيته القصيرة، وتسللت بعض الخصلات الفضية إلى شعره. تنفَّس الصعداء وقال في نفسه:

"لا بأس، ربما زادني ذلك وقاراً أحتاج إليه الليلة."

قطع حبل أفكاره صوتٌ قويٌّ، وممتلئ بالثبات:

"السلام عليكم".

ردَّ السلام بآلية، وعيناه تسمرتا على صورته. في تلك اللحظة شعر أنه لم يكبر كثيراً كما خيل له منذ ثوانٍ؛ فقد كان المتحدث رجلاً في منتصف الستينيات. علم فوراً أنَّ هذا هو "الأستاذ عبد المجيد". كان

الشخص الوحيد من بين مئة بريدٍ إلكترونيٍّ الذي راسله من بريده الرسمي باسمه الصريح.

لم يكن يتخيل أنه بهذا الوقار وهذا العمر. داهمته فكرة قلقة: "هل سيكون وجوده عائقاً؟ هل سيجيد التعامل مع تعقيدات تطبيق (زوم)؟ فأنا الذي أعيش في منتصف الثلاثينيات، أحياناً أنسى الميكروفون مفتوحاً!".

طرد هذه الأفكار سريعاً من رأسه، وفي غمضة عين، تضاعفت المربعات على الشاشة؛ ستة مربعات سوداء صامتة ظهرت فجأة لتقبع بجوار وجه الأستاذ عبد المجيد المضيء.

حبس أنفاسه لثوانٍ، وهو يتأمل الشاشة. كان وجه عم عبد المجيد هو الوحيد الذي يكسر عتمة المربعات؛ يبتسم للكاميرا بوضوح، مرتدياً قميصاً أبيض يبدو أنه كُوي بعناية فائقة خصوصًا لهذه اللحظة، وكأنه في موعد رسمي مع الحياة.

كسر الصمت صوت "تكة" ميكروفون يُفتح، تبعه صوت أنثوي حادٌّ قليلاً، يغلّفه ارتباك تحاول صاحبته جاهدةً إخفاءه: "مساء الخير.. أنا ليلى.. أتسمعونني؟ أم أنَّ الإنترنت عندي ضعيف؟".

قبل أن يفتح فمه للردِّ، انطلق صوت رجوليٌّ جهوريٌّ، مُشبع بنبرة من التعالي، وعدم الصبر، كان هذا "رامي" بلا شك:

"نسمعكِ يا ليلى.. دكتور وليد، هل سنقضي السهرة في اختبار المايكروفونات؟ أظن أنَّ وقتنا جميعاً له ثمن، أليس كذلك؟".

شعر بوخزة مألوفة في معدته؛ رامي بدأ الهجوم مبكِّراً، وفرض سطوته. نقَّل بصره سريعاً بين المربعات؛ المربع الذي يحمل اسم "يحيى" كان صامتاً، بينما أيقونة الصوت بجانب اسم "جنى" تومض وتختفي بسرعة، كأنها أنفاس مضطربة تتردد في الخروج.

قال بصوت هادئ، محاولاً استعادة دوره كقائد لهذا العرض الصاخب:

"أهلاً بكم جميعاً، أنا الدكتور وليد، وأشكركم على هذه الثقة. أعلم أنَّ التجربة غريبة، وأنَّ الاختباء خلف هذه المربعات السوداء قد يكون مريحاً للبعض، لكننا هنا لسبب واحد.. نحن هنا لأننا جميعاً نتألم من الوجع ذاته، وإن اختلفت الطرائق".

عدَّل نظارته على جسر أنفه، وتابع بنبرة أكثر جدية:

"حسناً.. سنبدأ بسؤال بسيط، لا أريد أسماءً ولا تفاصيل.. أريد من كلِّ واحد منكم أن يصف شعوره تجاه (الحبِّ) في كلمة واحدة فقط.. من سيبدأ؟".

"وجع"، (جاءت مخنوقة من ريم).

"سلعة"، (قذفها رامي باحتقار).

"ذنب"، (همست بها آمال).

وفجأة، ظهرت جملة على شاشة المحادثة (Chat) من يحيى الذي فضَّل الكتابة على الكلام:

"لا أعرف".

وسط هذا الركام من اليأس، جاء صوت عم عبد المجيد بابتسامته العريضة التي لم تفارق الكاميرا، ليقول بيقين يخصُّه وحده:

"وفاء".

عدَّل وليد جلسته، ووجَّه حديثه للمربعات الصامتة بنبرة هادئة ومنظمة:

"سأعطيكم ملخَّصاً سريعاً لما سنقوم به في جلساتنا القادمة. أعتقد أنَّ أفضل وسيلة لتخفيف الأعباء التي نجرُّها خلفنا هي أن ندرك أننا لسنا وحدنا في هذا المضمار، جميعنا يعاني، لكن بطرائق وألوان مختلفة. لذا، سنبدأ بالاستماع لقصصنا، قصة تلو الأخرى، إذا شعر المتحدث فيكم أنه لا يستطيع الإكمال، يمكننا الانتقال إلى قصة ثانية، والعودة إليه لاحقاً حين يستعدُّ، كما يحقُّ لكلٍّ منكم التعليق على قصة الآخر، بشرط أن يكون التعليق في إطار الأدب والاحترام التام.. نحن هنا لنتعافى، لا لنتبادل السهام".

ساد صمتٌ ثقيل، وكأنَّ الجميع يَزِنون كلماتهم قبل البدء.

نظر إلى الشاشة، وقال: "مَن يحبُّ أن يبدأ".

أيقونة الميكروفون بجانب اسم "جنى" تضيء، ثم تنطفئ بسرعة، تكرر الأمر مرتين، وكأنها معركة بين رغبتها في الصراخ وخوفها من الكلام. ساد صمتٌ ثقيل لثوانٍ، شعر فيها بعينَيّ عمِّ عبد المجيد تراقبانه عبر الكاميرا بصبرٍ أبويّ.

فكَّر للحظة: "هل أطلب من عمِّ عبد المجيد أن يبدأ؟."

لكنه تراجع فوراً. بوقاره الشديد ولغته المنمَّقة التي استخدمها في البريد الإلكتروني، قد يرفع سقف التوقعات عالياً، مما سيجعل البقية يرتعبون من اختيار كلماتهم.

كان لا بدَّ من كسر هذا الصمت الذي بدأ يتجمد.

تحدَّث فجأة بكلمات حادة وواضحة، مزَّقت سكون الجلسة كأنها زجاجٌ ينفجر:

"يمكننا البدء بـ (جنى).. اتفضلي يا جنى، كلنا سامعينك".

أخيراً، استجمع المربع الذي يحمل اسم "جنى" شجاعته، وانطلق صوتها مشوباً بارتعاشة خفيفة تحاول وأدها:

"اسمي جنى.. طبعاً ده مش اسمي الحقيقي، عندي أربعة وعشرين سنة.. أنا مهندسة".

لم تكد تنهي جملتها حتى اخترق صوت "رامي" هدوء الجلسة بنبرة ساخرة، تقطِّر استهزاءً:

"ومهندسة دي شغلانتك الحقيقية، ولّا مستعارة هي كمان".

ساد صمتٌ مذهول. شعر بالغضب يتصاعد في حلقه من هذه الفجاجة، بينما رأى عمَّ عبد المجيد يهزُّ رأسه في الكاميرا باستنكار واضح. تدخَّل فوراً بنبرة حازمة، لم تخلُ من حدَّة، محاولاً السيطرة على زمام الأمور:

"أستاذ رامي.. شكلنا نسينا القواعد اللي اتفقنا عليها من دقايق، هنا مبنقاطعش حد".

صمت للحظة، ليتأكد الجميع أنه لن يُسمح بالتجاوز، ثم وجَّه حديثه للمربع الصامت:

أعتذر عن المقاطعة يا جنى.. اتفضلي، كمِّلي كلامك، إحنا معاكي".

ساد صمتٌ قصير، قبل أن تستأنف جنى حديثها بنبرة أكثر حدَّة، وكأنَّ سخرية رامي من مهنتها قد استفزَّت كرامتها:

"لا.. الهندسة شغلانتي الحقيقية مش مستعارة، ولو كنت عارف يعني إيه أن تدرس الهندسة المدنية كبنت مكنتش سخرت".

تنفَّستْ بعمق، ثم تابعت بصوت بدأ يهدأ تدريجيًّا، ليعود إلى نبرة الحزن الأولى:

"بدأت قصتي في سنة أولى جامعة، وقتها بدأتُ أشعر بداخلي احتياجات نفسية وعاطفية ناحية الجنس الآخر.. كنتُ مستنية أتحب، الاحتياج ده خلاني أختبر مشاعري ناحية أكثر من شخص، بس أصطدم دائماً بنفس النهاية؛ الشخص اللي يميل له قلبي، ألاقي عينه راحت لواحدة تانية".

توقفتْ لثوانٍ، ربما لتبتلع غصَّة في حلقها، ثم أكملت:

"كنتُ مجرد "زميلة". خلصت سنة أولى بسلام، ثم انتقلت لقسم الهندسة المدنية مع صديقاتي. هناك، قابلت صدمتي الأولى؛ لما عرفت أن أحد شباب الدفعة -من الملتزمين وأصحاب اللحى- إتقدم لخطبة صديقتي "مي" المنتقبة في الإجازة.. هو حتى مشافش وشها! وقتها سألت نفسي بمرارة: إيه ينقصني ليه محدش بيعبرني دايماً".

قال مقاطعاً بنبرة هادئة، لكنها استقصائية:

"لحظة واحدة يا جنى.. الجملة اللي قلتيها الآن: (إيه ينقصني؟).. أريد أن أسأل الجميع: هل صرخ أحدكم بهذا السؤال داخل نفسه قبل كده؟".

لم تمرَّ ثوانٍ حتى رأى علامات "الأيدي المرفوعة" تظهر تباعاً على الشاشة بجانب اسم يحيى. كان مشهداً مؤلماً؛ تلك الأيدي الافتراضية بدت وكأنها استغاثة حقيقيَّة من بئر عميقة.

بدأ يدوِّن ملاحظاته بسرعة، ثم وجَّه سؤاله لجنى من جديد:

" جنى.. أكانت هذه رؤيتكِ لنفسكِ، أم أنها مجرد انعكاس لرؤية الناس لكِ؟ بمعنى آخر: أكنتِ تشعرين فعلاً بوجود نقصٍ داخليٍّ، أم أنكِ صدَّقتِ ما قاله لكِ صمت الآخرين؟".

تنهدت جنى بعمق، وخرج صوتها هذه المرة محمَّلاً بحيرة طفلة:

" مش عارفة يا دكتور.. كنت مليانة شوية، بس كنت بشوف بنات أتخن مني بيتحبوا عادي".

***

في سنتها الرابعة من التخصص، لم تكن "جنى" تحارب ضغوط الدراسة فحسب، بل كانت تحارب "زنَّ" أمِّها الذي لا يتوقف. ازدادت وتيرة الضغط بعد زواج شقيقتها الصغرى منذ عام؛ فأصبحت جنى في نظر العائلة "المتأخرة" التي فاتها القطار.

لم يدقَّ بابها خاطب واحد، ولم يرفرف قلبها لقصة حبٍّ مكتملة. كانت تعيش "لعنة البدايات المبتورة"؛ كلما شعرت بانجذاب نحو زميل، سرعان ما تجده يعلن خطبته على أخرى، سواء من الدفعة نفسها، أو حتى أصغر سنّا. وكأنها كانت تميمة حظٍّ لغيرها، وليست لنفسها.

كردِّ فعل يائس، خاضت رحلة قاسية مع "الريجيم"، تخلَّت فيها عن متعة الطعام، وخسرت عدداً لا بأس به من الكيلوجرامات، لعلَّ

النصيب يرى رشاقتها فيلتفت.. لكنَّ المرآة تغيَّرت، والواقع بقي كما هو.

جاء اليوم الأخير في الكلية.. يوم الوداع.

اجتاحها شعور بارد بالرعب من المستقبل. اليوم تنتهي علاقتها بهذا المكان الذي كان يمثِّل "حوض السمك" الأكبر لفرص الزواج المحتملة. إلى أين ستذهب؟ وهل ستلتقي بشريكها هناك؟ أو أنَّ الفرص تضيق كلما كبرنا؟

وقفت الدفعة كلها أمام مبنى الكلية العتيق، بجدرانه المائلة للسقوط التي تشبه أحلامها المتداعية، لالتقاط الصورة التذكارية الأخيرة.

ابتسمت للكاميرا ابتسامة باهتة، وما إن تفرقت الجموع، حتى انقسمت الدفعة تلقائيًّا إلى "ثنائيات" . العشاق يتهامسون بوعود البقاء، والأصدقاء يواسون بعضهم على فراق اللقاء اليومي الذي سيتحول لانتظار بالأسابيع والشهور.

تلفتت جنى حولها.. لم تجد من يقاسمها هذا الشعور، أو حتى من يودِّعها بحرارة.

سحبت قدميها ببطء نحو بوابة الخروج، تاركة خلفها جزءاً من ذاكرتها في كلِّ زاوية؛ هنا حلم، وهنا تعثُّر، وهنا إحباط، وهنا فرحة عابرة.

وبينما هي توشك أن تعبر البوابة نحو المجهول، سمعت وقع خطوات سريعة تلاحقها، لاهثة، وكأنَّ صاحبها يركض خلف فرصة أخيرة.

قاطع صوت خطواتها صوت خجول، متردد، ولكنه يناديها باسمها:

"جنى.. يا بشمهندسة جنى!".

***

قرر أن يتدخل، وينقل دفَّة الحوار لشخص آخر ليظلَّ الجميع متيقِّظًا

" شكراً يا جنى.. سأتركِكِ ترتاحين قليلاً".

ساد صمتٌ من نوع آخر، صمتٌ فيه ترقُّب، بينما تحوَّل تركيز المجموعة كلِّها إلى ذلك المربع الصامت الذي يختبئ خلفه يحيى.

انطلق صوت يحيى مهتزّاً، يقطِّر ارتباكاً، كأنه يخشى أن تكتشف أمُّه أنه يتحدَّث معنا:

"السلام عليكم".

سارع الأستاذ عبد المجيد بردِّ السلام بنبرة هادئة، ووجه مبتسم، وكأنه يمدُّ له يداً افتراضية ليطمئنه، ويسحب الخوف من صوته.

"اسمي يحيى، عندي سبعة وثلاثين.. مهندس".

قال مشجعاً: "أهلاً بيك يا يحيى".

"أهلاً بحضرتك يا دكتور.. تحبّ حضرتك أبدأ منين؟".

"من المكان اللي تشعر فيه برغبة في الكلام يا يحيى".

تنهَّد يحيى، وسمع خلف صوته حفيف حركة، ربما كان يعدِّل جلسته، أو يفرك يديه:

"الدنيا كانت تمام.. هادئة ومستقرة، حتى سنّ الثلاثين. في عيد ميلادي الثلاثين، احتفلنا في بيت جدتي، وسط خالاتي وأبنائهن وأمي.. وفجأة، اتَّخذ الحديث مساراً لم أحبَّه، بدؤوا يسألوا أمي: (هتبقي جدة إمتى يا بهيرة؟ مش ناوية تجوزي يحيي ولّا هيفضل جنبك العمر كله."

صمتَ يحيى لثانية، وكأنه يسترجع توتر تلك اللحظة، ثم تابع:

"توترت أمي، وقالت: (هو أنا ماسكاه؟ هو اللي مش عايز). والحقيقة يا دكتور، أنني فعلاً مفكرتش في أن يكون لي بيت مستقل، أو زوجة وأبناء، أنا حتى معرفش دور الزوج أو الأب! أنا مش عاجز.. أقصد جسديّا، أنا سليم تماماً".

توقَّف يحيى عن الكلام فجأة، وبدا أنَّ صوته غرق في بئر ذكريات بعيدة.

طفلٌ في العاشرة، يقف مرتجفاً خلف باب موارب..

" ابعدي يا بهيرة! ".

كان صوت والده يرجُّ جدران البيت الضيق. رأى يحيى يد والده وهي تدفع أمه بعنف لتسقط على الأرض، لم تكن الصرخة هي ما آلم يحيى، بل كان مشهد والده، وهو يحاول إخفاء هاتفه المحمول، وتلك النظرة المنكسرة في عينيّ أمِّه وهي تحاول النهوض:

"قل لي رقم مين ده اللي على تليفونك؟ ".

"زميلتي في المكتب.. من الطبيعي أن يكون للإنسان زميلات شغل، ولا قاعدة البيت نسيتك؟ ".

تحوَّلت المعركة إلى صمتٍ ثقيل، حين لمح الأب ابنه الصغير يراقب المشهد بعينين متسعتين من الرعب.

تراجع والده خطوة، ومدَّ يده بآلية ليساعد أمَّه على النهوض، كأنَّ شيئاً لم يكن.

"يوووه.. دي مبقيتش عيشة! ".

ترك الأب الغرفة، واتجه نحو "الكنبة" في الصالة، أشعل التلفاز، وجلس يشاهد مباراة لا يعرف أسماء لاعبيها، فقط ليخلق جداراً من الضجيج يمنع به أيَّ مواجهة أخرى.

كان يحيى يعرف أنَّ "المباراة" هي حصن والده الحصين، حيث يُمنع الكلام، ويُباح الصمت.

أما في الغرفة المغلقة، فقد ارتمى يحيى في حضن أمه.

كانت "بهيرة" تضمُّه بقوة، تبكي بصمت، وتحكي له قصصاً حتى تنسيه ما رآه .

***

نظر إلى المربَّع الصامت الذي يمثِّله يحيى، وشعر أنَّ الكلمات التي قالها عن "عدم معرفته بكيفية تأدية دور الأب"، هي مفتاح زنزانته. قال بنبرة هادئة، وصوتٍ فيه الكثير من الاحتواء:

"يحيى.. المشكلة ليست في أنك لا تعرف (الدَّور)، المشكلة في أنك لا تزال تشاهد (العرض القديم) في رأسك، أنت تخاف أن تفتح بيتاً، لأنك تعتقد أنَّ البيوت تُبنى فقط من أجل الصراخ، أو الصمت الموحش الذي رأيته في طفولتك، ما زلت تعتقد أنك حارسٌ لدموع والدتك، وهذا حِملٌ ثقيل لا يسمح لأيِّ رجل بالتحرُّك إلى الأمام".

صمت للحظة، ثم تابع قبل أن يتدخَّل رامي بسخافته المعهودة:

"سأتركك يا يحيى مع هذا السؤال، لتفكِّر فيه حتى الجلسة القادمة: هل أنت ترِفض الزواج حقًّا، أو أنك ترفض أن تكون (الرجل) الذي رأيته في صغرك؟."

ساد سكونٌ تامٌّ، شعر أنَّ الكلمات قد أصابت هدفها.

التفت إلى الشاشة، وبدأ يبحث عن اسمٍ آخر يكسر هذه الحالة من الانقباض.

"أعتقد أننا نحتاج إلى سماع صوتٍ مختلف الآن. ليلى.. كنتِ هادئة جداً طوال حديث جنى ويحيى، رغم أنكِ كنتِ أول من فتح الميكروفون في البداية، هل تشاركيننا شيئاً مما يدور في عقلك الآن؟."

"اسمي ليلى، ٢٠ سنة، تالتة إعلام.. وبصراحة، أنا مش عارفة إيه المشكلة في كل اللي بتقولوه تستدعي إنكم تخفوا وشوشكم وتتكلموا من ورا الشاشة؟".

قالتها بنبرة تقطِّر تحديًّا، وقبل أن يستوعب أحد جرأة كلماتها، ضغطت على زر الكاميرا. فجأة، انكسرت عتمة المربعات السوداء بظهور وجهها الذي اقتحم الشاشة كضوءٍ مباغت.

كانت ليلى تجسيداً للنضارة الممزوجة بالتمرد؛ وجه صبوح ببشرة صافية كمرآة، وعينين واسعتين يلمع فيهما ذكاءٌ حادٌّ. لفت نظره شعرها القصير الذي صبغته بلون أشقر جريء، تتخلله خصلات صفراء فاقعة (Highlights) تنسدل على جبينها بعفوية مدروسة. كانت ترتدي "تيشيرت" أسود بسيطاً بنصف كم، يبرز نحافة ذراعيها، وتضع في أذنيها سماعات "إيربودز"، وكأنها لا تشارك في جلسة علاج نفسي، بل

تدير حواراً إذاعياً من غرفتها.

لم يمهلها رامي طويلاً، إذ اخترق صوته الجلسة بنبرة ساخرة، مشبعة بالاستعلاء:

"أنتِ بقى يا صغنن.. عندك مشاكل إيه تخليك هنا؟".

لم ترمش ليلى، وردت ببرود يذبح:

" أكيد مش زي المشاكل اللي عندك يا أستاذ رامي.. أنا على الأقل عندي الشجاعة أحكيها بوشي، مش مستخبية ورا شاشة سودة زي اللي عليه تار، وخايف يظهر!".

ساد صمت مذهول لثوانٍ، كأنَّ الكلمات أصابت رامي في مقتل. وفي تلك اللحظة، حدث ما لم يتوقع؛ انفجر الأستاذ عبد المجيد بالضحك، كانت ضحكة مجلجلة، عميقة، وصافية، لدرجة أنها سمعت صداها يتردد بوضوح، رغم أنه كان قد فعَّل زر" الكتم (Mute) عنده. بدا وكأنَّ ليلى قد ثأرت له بكلماتها من غطرسة رامي التي لم تتوقف منذ بداية السهرة

.توقفت ليلى عن الهجوم فجأة، وخُنِقَت نبرة صوتها، وهي تشرد بعيداً عن الكاميرا، ثم قالت بهدوء:

"الموضوع بدأ برسالة.. (أنا ١٧ سنة، في تالتة ثانوي).

صمتت لثانية، وكأنها تستعيد وقع تلك الكلمات على شاشتها، ثم تابعت:

"يومها ردَّ عليَّ فوراً، وكأنه كان ينتظرني: (طب حلو أهو، فرق السنّ بيننا مش كبير، هنعرف نبقى صحاب").

هزَّت ليلى رأسها، وهي تتأمل الفراغ، ثم أردفت بارتباك لم تستطع إخفاءه: "مش عارفه ده بالذات اللي رديت عليه، رغم أن (Message Requests) عندي مليان بمئات الرسايل من المتطفلين.. ممكن صوره على (إنستجرام) هي السبب".

لم تكتفِ ليلى بسرد البدايات، بل راحت تسترجع تفاصيل أول مكالمة فيديو، وكأنها تعيشها الآن:

***

"ألو.. إيه عامل إيه النهاردة؟".

جاء صوته من خلف الشاشة، هادئاً، لكنه يحمل بحَّة مريحة:

"الحمد لله، كويس.. أحسن بكتير".

"نزلت الجامعة النهاردة؟".

"آه، كان عندي محاضرة واحدة خلصتها.. وبتمشى على الكورنيش دلوقتي وأنا بكلمك، استني هفتح فيديو كول أوريكِ البحر".

أضاءت الشاشة بوجهه، وبدت ضحكتها عفوية، وهي تراه يلفُّ وشاحاً حول عنقه: "إيه ده؟ أنت متقل كده ليه؟."

"مش لسه خارج من دور برد؟."

ردَّ بمشاكسة، وهو يبتعد بالموبايل ليظهر الكورنيش خلفه:

"ماشي يا عم الحاج.. متزقش!".

ضحكت ليلى من قلبها، فسألها باستغراب:

"بتضحكي على إيه؟".

"أصل عمري ما كنت أتخيل إني أتكلم مع حد أكتر من ٣ شهور، لا، وكمان فيديو كول!".

"ليه؟."

تنهَّدت ليلى، وقالت بنبرة فيها مرارة مجربة:

"كل اللي بيدخلوا يتكلموا في أي حاجة، يومين ويبدأ (يقبّح) ويبقى عايز قرف.. كلهم شبه بعض، إلا أنت".

وفجأة، صرخت ليلى، وهي تلتفت بعيداً عن الكاميرا:

"ما تحاسب يا أعمى."!

انتفض صوته في السماعات بقلق حقيقي:

"في إيه؟ أنتي كويسة؟."

ردَّت، وهي تحاول التقاط أنفاسها، وتعدِّل خصلة من شعرها:

"مالك يا عم اتخضيت ليه؟ كان في واحد هيخبطني بالعربية.. سهلة أهي، جت سليمة."

حاول استعادة بروده سريعاً ليخفي قلقه:

"وهتتخض ليه يعني؟ عادي".

ضحكت ليلى بدلال، وهي تدرك أنَّ قلقه كان صادقاً رغم إنكاره، وقالت:

"ماشي يا سيدي.. هصدقك".

تابعت ليلى حكايتها، وصوتها بدأ يكتسي بطبقة من الضيق، وهي تقترب من نهاية المكالمة:

"ماشي.. أنا هقفل بقى عشان وصلت عند البيت، وغالباً كلهم موجودين جوه".

جاء صوته من السماعات مستغرباً، ممزوجاً بنبرة من التشكيك:

"إيه ده؟ يتحسدوا والله.. وباباكي كمان موجود؟ دي غريبة دي!".

تنهَّدت ليلى، وهي تضع مفاتيحها في قفل الباب، وقالت بمرارة مكتومة:

"آه والله يا بني.. ماما بقالها شهر بتتحايل عليه عشان نتجمع، وهو

كل يوم شغل، شغل، اجتماعات، حالات.. أنا هقفل دلوقتي عشان خلاص دخلت الشقة.. باي".

"خلي بالك من نفسك، باي".

***

قاطع وليد "ليلى" بكلمات شكر هادئة، ليمنحها فرصة لاستعادة أنفاسها، ثم انتقل بدفَّة الحوار إلى تلك الزاوية الغامضة في الشاشة.. إلى "آمال".

خرج صوتها خفيضاً، مرتجفاً، وكأنَّ الكلمات تخرج من حنجرةٍ مجروحة:

"أنا آمال.. عمري ٣٥ سنة.. هدخل في الموضوع على طول لأني مش هتحمل المقدمات.. أنا خاينة، وشعور الذنب بياكل روحي كل ليلة، لكنني تُبت".

لم تكد تنهي جملتها حتى انقضَّ "رامي" على كلماتها كالنمر، وبضحكة ساخرة تقطر احتقاراً، قاطعها قائلاً:

"وفي الخيانة (توبة)؟ الخيانة مرة واحدة بس يا مدام!".

ساد صمتٌ خانق، لم يقطعه سوى شهقة بكاء مريرة انفجرت من "آمال". لم تحاول حتى الدفاع عن نفسها، أو تبرير موقفها، بل مربَّعها

اختفى فجأة من الشاشة، بعد أن قامت بمغادرة الاجتماع Leave
(Meeting، تاركةً خلفها صدى بكائها يتردد في آذانهم جميعاً.

نظر إلى الشاشة بذهول، وقال بصوتٍ يملؤه الغضب المكتوم:

"أستاذ رامي.. بكلمة واحدة منك فقدنا شخص جه هنا باحث عن طوق نجاة، مش عن قاضي يجلده!".

لم يتمالك غيظه من رامي؛ فجاجتُه كادت تطيح بكلِّ ما بناه في دقائق، لكنه، وبرغم كلِّ شيء، يعرف أنَّ وجوده "ضروري" لمشروعه. كان عليه أن يقضي على سخافاته، ويحجم طغيانه قبل أن يؤذي الجلسة أكثر، وكان عليه أن يعيد الهدوء إلى المكان.. ومن سيفعلها غيره؟

رأى ذلك في عينيه عبر الكاميرا؛ رأى حزناً دفيناً يحاول مواراته خلف ابتسامة وقورة، ورأى رغبةً مكبوتة في الحكي قد تكون هي الترياق لكلِّ ما قيل. قرر أن ينقل الدفة إليه تماماً، بعيداً عن صخب رامي وجرأة ليلى.

نظر إلى مربَّعه المستقر في أعلى الشاشة، وقال بنبرة هادئة ورزينة:

"أستاذ عبد المجيد.. اتفضل، إحنا سامعينك".

بمجرد أن ظهرت علامة الـ (Mute) الحمراء على مربَّع رامي، شعر بانتصار صغير؛ لقد نجحت الخطة، وأُجبر "على الصمت، لكنَّ أفكاره انقطعت عندما بدأ ذلك الصوت الرخيم ينساب في الآذان.

قاطع حبل أفكاره صوت عبد المجيد، الذي جاء دافئاً ومطمئناً:

"أنا عبد المجيد حسن، عمري ٦٥ سنة.. أنا في الحقيقة لما شفت الإعلان حبيت أشترك معاكم وأتعرف عليكم، الحقيقة أنا عايش لوحدي، وعندي صحاب طيبين زيكم، في الحقيقة هو صاحب واحد.. بنزل أصلي العشاء معاه في جامع عمرو بن العاص كل خميس، ونقعد على مقهى جنب المسجد ساعتين، وبعدها بيروح لأسرته.. وأنا بفضل مستني لحد صلاة الفجر، وبعدها برجع لوحدتي تاني، بعد ما بقضي الفرض.. تشرفت بمعرفتي بيكم".

كانت كلماته بسيطة، لدرجة توجع القلب، وشعر أنَّ الجميع خلف شاشاتهم قد خفضوا رؤوسهم احتراماً لهذه الوحدة الوقورة. قاطعه قائلاً بنبرة ممتنة: "ده إحنا اللي لينا الشرف يا أستاذ عبد المجيد.. بس حضرتك عايش لوحدك من إمتى؟"

تنهَّد عبد المجيد، وظهرت على وجهه ابتسامة باهتة تحمل أرشيفاً من الذكريات:

" توفيت زوجتي من ٥ سنوات.. كانت كلّ حاجة في حياتي. عندي ابن وحيد يعيش في أمريكا منذ زمن، ومنذ وفاة زوجتي مشوفتوش.. كانت زوجتي هي الأم، والصاحبة، والابنة، والحبيبة.. أعرفها من أكتر من ٥٠ سنة، حبّ الجامعة زي ما بيقولوا".

لم يستغرق صوت المنبِّه أكثر من ثانيتين؛ كانت يد عبد المجيد قد امتدت بالفعل لتخرسه قبل أن يوقظ جدران البيت الصامتة. كانت الساعة الخامسة إلا ربع صباحاً.

قام من سريره بهدوء آليٍّ، اتجه نحو المرحاض، وتوضأ.

نزل الدرج بخطوات وئيدة ليصلي الفجر، وبعدما انتهى من صلاته، مرَّ على عربة الفول المجاورة لمنزله ليشتري ما يكفيه لفطوره.

عاد عبد المجيد إلى بيته في "مصر القديمة"؛ ذلك المنزل القديم المكوَّن من ثلاثة أدوار. لقد قضى معظم حياته في الدور الثاني، لكنه الآن يقطن الدور الأرضي؛ انتقل إليه منذ سنوات حين مرضت زوجته، مستغلًّا رحيل المستأجر آنذاك ليجنبها مشقة السلالم.

دخل شقته، ولم يستغرق الأمر بضع دقائق حتى كان قد أعدَّ مائدته الصغيرة، لا يحبُّ أن يطيل بالمطبخ، كلُّ حركة في المطبخ كانت تذكِّره بها، برائحة الفول، بصفارة الماء، بابتسامة كانت ترافقه في مطلع كلِّ صباح.

وضع ثلاث بيضات في الإناء ليسلقها؛ واحدة له، واثنتان لقطة الشارع التي تنتظره دائماً أمام باب الشقة. لم يسمح لها يوماً بالدخول، يكتفي بمصاحبتها وإطعامها في الخارج فقط.

كان يسكنه هاجسٌ غريب ومظلم؛ إذ لطالما شكَّ في أنها إذا دخلت واستقرت، قد تنهش جثته في حال وفاته وحيداً، إذا لم يكتشف أحد موته في الوقت المناسب.

بعد الفطور، يستند بظهره على مقعده المعتاد أمام قناة الأخبار. تارة يغلبه النعاس من أثر السنِّ والوحدة، وتارة أخرى تستفزُّه أخبار العالم، فيشعر بوطأة الزمن الذي يمضي، وهو لا يزال جالساً في مكانه، ينتظر شيئاً لا يأتي.

***

تنحنح عبد المجيد، ومال بجسمه قليلاً نحو الكاميرا، وكأنه يمدُّ يده ليمسح على كتف يحيى عبر الشاشة، وقال بنبرة أبوية دافئة:

"يا يحيى.. في الدنيا دي حاجات حلوة كتير لازم تعيشها، متبقاش قاسي على نفسك، وتحكم عليها بالوحدة من دلوقتي وأنت لسه في عزِّ شبابك".

ساد سكونٌ تام، استمرَّ عبد المجيد بابتسامة باهتة تحمل سخرية مُرَّة من القدر، وأردف قائلاً:

"عِيش يا بني وجرَّب.. متستعجلش على الونس المقفول عليه باب واحد، لأن الوحدة كده كده جاية جاية.. محدش بيهرب منها في الآخر".

رغم مسحة السخرية في جملته الأخيرة، فإنها كانت صادمة بصدقها. شعر برعشة خفيفة تسري في الجلسة؛ فكلام هذا الرجل ليس نصيحة من كتاب، بل هو "نبوءة" شخص يعيش تلك الوحدة كلَّ صباح مع بيضاته الثلاث، وقطة الشارع.

نظر سريعاً لمربَّع "رامي"، كان لا يزال صامتاً، وكأنَّ كلمات عبد المجيد عن "الوحدة الحتمية" قد لمست وتراً معطلاً بداخله.

قطع سكون الغرفة صوت تنبيه البطارية من حاسوبه؛ لقد قاربت على النفاد. نظر إلى الساعة، فإذا بها تشير إلى العاشرة مساءً، شعر أنَّ هذا يكفي لهذا اليوم، لذا أنهى الجلسة بنبرة رسمية، مؤكِّداً على موعدهم المتجدد في التوقيت ذاته من الأسبوع القادم.

أطبق شاشة حاسوبه، وشعور ثقيل بالإرهاق يجثم على صدره؛ كانت جلسة استنزفته بحق، لم يتحدَّث الجميع اليوم، وتساءل: "ماذا لو انفجرت كلُّ تلك الخناجر دفعة واحدة؟ ثمة حكايات لا تمرُّ عابرة، بل تستوطن الرأس، وتأبى الرحيل.

ما زال صوت "يحيى" يتردد في أذنه.. لو كان الأمر بيده لحكم على أبيه بالسجن؛ فليس كلُّ ذكر يستحقُّ أن يكون أباً.

ولكن.. أليست تلك حكمة إلهية خفية؟ تعلَّم في مهنته أنَّ "شيطنة" الطرف الغائب حيلة نفسية مشروعة أحياناً؛ ليشتري المرء سلامه النفسي.

ماذا لو كان يحيى يرى المشهد بعينيّ أمِّه فقط؟ ماذا لو كانت تلك "الحقيقة" الراسخة لديه منذ سنين ليست إلا رواية من طرف واحد؟."

ثم قفزت صورة "عبد المجيد" إلى ذهنه.. ودَّ لو يستطيع اختراق مربَّعه الصغير على الشاشة، ليكون هو الونس الذي يكسر عزلته القاتلة. ارتجف قلبه للحظة: هل هذا هو مصيره؟ هل سينتهي به المطاف وحيداً، يستجدي الأنس من قطة صامتة بعد أن يخفت صخب الحياة؟ قال لنفسه:

"لا.. يجب أن أتماسك. هو لا يحتاج إلى نصائحي بقدر حاجته إلى الشعور بالانتماء، لذا آثرتُ وجوده الصامت على غيابه".

فجأة، انفتح الباب لتقطع الممرضة حبل أفكاره، ناولته كوب الماء، وقرص الدواء، وهي تبتسم بحنو: "ارتح قليلاً يا دكتور".

ابتسم لها بامتنان، وهو يبتلع الدواء.. ثم حدَّث نفسه:

"كم هم لطفاء، الجميع هنا يكنُّ لي كلَّ الاحترام".

(الجلسة الثانية)

التقمَ قرص المسكِّن المعتاد، وأشعل سيجارة في صمت، تاركاً دخانها يمتزج برائحة القهوة الصباحية. راح يرتِّب أفكاره لما هو آتٍ، عقله مشغول بـ (آمال). لقد أمطر بريدها الإلكتروني بالرسائل دون ردٍّ، لكنَّ خبرته الطويلة تخبره أنها ستعود.. راهن على ذلك اليوم..

ضغط على الرابط، فظهرت شاشة الانتظار. كانت (ليلى) هي الأولى حضوراً، وحيدة هناك، بدت اليوم أكثر غضباً وتوتراً من المرة السابقة. رحب بها، فردَّت التحية ببرود مقتضب.

لم يطُل الانتظار حتى أطلَّ (عبد المجيد) بقميصه المكويِّ بعناية كعادته، رمزاً للالتزام وسط الفوضى، وتوالت بعدها المربعات السوداء في الظهور.. نعم، لقد اكتمل العدد.. بما فيهم (آمال.(

وجَّه حديثه لمربَّع "ريم" الأسود، طالباً منها أن تبدأ.. فانطلق صوتها مكتوماً، وبدأت تسرد الحكاية:

" ألف مبروك يا حبيبي.. تستاهل كل خير، ربنا معاك دايماً . "

"الله يبارك فيكي يا حبيبتي.. ومبروك ليكي أنتي كمان".

" يا عم مين قدك.. (جيد جداً)! أنا يدوب (جيد) بالعافية".

"بس بقى.. عشان بتكسف".

"باباك عامل إيه دلوقتي؟ أتحسن شوية؟".

"الحمد لله.. نزل الشغل النهاردة أول يوم، حاولت أقنعه يريح بس هو صمم ينزل".

"معلش يا حبيبتي، لازم أقفل وأروح أكمل شغل.. البريك خلص".

"ماشي يا حبيبي.. ربنا معاك".

"كانت ريم تستلقي على سريرها، تمرر أصابعها بملل على (فيسبوك)، حتى توقَّف قلبها فجأة، وتجمَّدت عيناها على منشور في (جروب الدفعة).. الاسم مألوف، إنه صديق محمود وجاره، والكلمات كانت كالرصاص: (ادعوا لوالد صديقنا محمود.. لقد توفاه الله).

انتفضتْ من فراشها كمن لدغته عقرب.. ضغطت على اسم محمود واتصلت مرة، مرتين، وبجنون.. لكن دون جدوى، الهاتف يرنُّ في الفراغ.

خرجتْ من غرفتها تصرخ بانهيار، ارتمت في حضن أمها وهي تتمتم بالخبر.. ضمَّتها الأمُّ بقوة؛ لتمتص ارتجاف جسمها، ثم قالت بحزم حنون:

"قومي البسي هدومك يا بنتي.. لازم نروح نعزي".

حصلت ريم على العنوان من صديق مشترك، وانطلقت مع والدتها. كان محمود يسكن في منطقة عالقة في المنتصف؛ مسخٌ مشوه لا هو قرية تكسوها الخضرة، ولا مدينة ممهدة الطرقات. الأسفلت هناك يكاد يختفي تحت التراب، والحيوانات لا تزال تسير في الشوارع ببطء، تترك مخلفاتها على الطريق لترسم ملامح المكان.

كان محمود يقف في السرادق، وحيداً بجوار عمه، يتلقّى العزاء في ظهره الذي انكسر، وما إن لمح طيف ريم وأمها حتى انفكَّ من جمود الحزن، وأسرع نحوهما بلهفة. تقبَّل عزاءهما، ثم قادهما بنفسه إلى مدخل البيت، حيث عزاء السيدات، موصياً إحدى شقيقاته بالاهتمام بهما.

طوال الوقت، لم تكن أمُّ ريم تبالي بتفاصيل العزاء، ولا بالنحيب.. كانت عيناها معلقتين كالصقر بشيء واحد فقط: والدة محمود، وهي تضم بناتها الثلاث حولها؛ الأخت الكبرى المتزوجة، والفتاتين اللتين تبدوان في عمر الجامعة والثانوية.. كانت أمُّ ريم تراقبهن بنظر لم ترتَح لها ريم).

مرَّ على موت والد محمود عدة أشهر...كانت ريم تجلس على سريرها حتى وجدت رقمه علي هاتفها، أسرعت بالردِّ.

"ألو.. أيوة يا حبيبي، عامل إيه؟".

"الحمد لله يا حبيبتي.. بخير".

"وحشتني أوي.. مش هتيجي الجامعة قريب؟".

"ممكن.. لما امتحانات الميدتيرم تبدأ".

"مالك؟ صوتك مش مريحني".

"مفيش.. بس شغلانة (الكول سنتر) دي مش جايبة همها، بصرف مواصلات فيها كتير، والمرتَّب ضايع.

فيه واحد صاحبي من إعدادي شغال (كهربائي) دلوقتي، عرض عليا أنزل معاه أشتغل، هبقى قريب أكتر من البيت، واليومية أحسن بكتير، ولو جه شغل بعيد، المواصلات بتكون عليه هو. صمتت ريم لحظة تستوعب تحوُّل حبيبها من طالب جامعي لعامل باليومية، لكنها ردَّت بسرعة لتدعمه:

"وماله يا حبيبي.. الشغل مش عيب، أنا هبعتلك المحاضرات أول بأول تذاكرها".

فجأة، قاطع حديثهما صوت أمِّ ريم الحادُّ، يخترق باب الغرفة:

"ريم، اقفلي المكالمة دي، وتعالي هنا حالاً.. عايزاكي".

همست ريم برعب:

"ماشي يا حبيبي.. هكلمك بعدين.. سلام".

أغلقت الهاتف، وخرجت لتجد أمَّها تجلس بجمود، وعيناها تلمعان بنظرة حسم: "نعم يا ماما؟".

"وبعدين يا ريم؟ إحنا عملنا الواجب وزيادة.. عدّى ٣ شهور
من وقت وفاة باباه".

"مش فاهمة يا ماما.. تقصدي إيه؟".

"تقدري تقوليلي آخر الموضوع ده إيه؟ أنا كنت موافقة في الأ
على مضض، وقولت ماشي، شاب مكافح ويبدؤوا من الصفر زي
معظم الناس بيعملوا دلوقتي.. لكن بوضع عيلته الجديد ده، الصفر
لسه مش هنوصله غير لما يجوّز بنتين في رقبته.. الله أعلم ده هيحصل
امتى!".

"يا ماما حرام عليكي".

قاطعتها الأم بنبرة هادئة، ولكن قاطعة كالسيف:

"بصي يا ريم، أنتي بنتي، وأنا خايفة عليكي من كسرة القلب. كلّ
ما الوقت يعدِّي، الفراق بيكون أصعب، امسحي عينك وادخلي شوفي
مذاكرتك".

قالتها الأم، ثم طبعت قبلة باردة على رأس ابنتها، وذهبت.. تاركة
إياها غارقة في حيرتها.

***

قاطع "ريم" بشكر مقتضب، مفسحاً المجال لـ "رامي" ليطلق قذائفه.. فتحدَّث بنبرة متبلِّدة، لا مبالية:

"أنا مشكلتي إني حاسس إن فيه حاجة ناقصة.. كأني (فاترينة) شيك بس فاضية من جوه، متعلم تعليم عالي، بشتغل شغلانة الكل بيحسدني عليها، بس برضه.. مش كامل. أنا عكس الباقيين هنا، أنا اللي بجرح مش بتجرح.. مقضيها، كل يومين مع واحدة، أريح نفسي وأشبع منها، وبعدين أرميها. هتلاقوا كلكم بتقولوا عليا حيوان، بس مفيش واحدة فيهم كانت بريئة.. يا إما مطلقة، يا إما (مدوراها)، وحتى لو متجوزة معنديش مشكلة".

اخترق صوت "عبد المجيد" جدار الصمت الإلكتروني بتمتمة حادة: "أستغفر الله العظيم.. أستغفر الله".

كان الصوت مسموعاً بوضوح، رغم أنَّ علامة "Mute" ما زالت تضيء بجوار اسمه! هل فكَّ كتم الصوت، وأعاده بسرعة؟ أو أنَّ استنكاره كان قويًّا لدرجة أنه تجاوز حواجز التكنولوجيا؟

تدخَّل سريعاً، قبل أن ينفجر الوضع:

"رامي.. هل يمكننا العودة إلى الوراء قليلاً؟ دعنا نترك علاقاتك الآن.. حدِّثني عن البيت، الأسرة، الطفولة".

اعتدل رامي في جلسته، وقال:

يجلس رامي المراهق على مكتبه، الكتاب مفتوح أمامه، لكنَّ عينيه تخترقان الخشب لتستقرا على ما هو أبعد.. هناك، تحت مرتبة السرير، حيث يقبع كنزه السري.. (المجلة) التي استعارها من صاحبه. متى ينام الجميع؟ متى يحُلُّ السكون لأحصل على فرصتي الذهبية؟

"راميييي!".

اهتزَّت جدران الشقة بصوت الأب الجهوري.

انتفض رامي، وقبل أن يمثِّل الانهماك في المذاكرة، انفتح الباب، ووقف الأب كالمارد فوق رأسه:

"أنا لسه قافل مع أستاذ الدراسات.. إزاي تجيب ١٨ من ٢٠ في امتحان الدرس؟ ها؟ أنت السنة دي تالتة إعدادي يعني شهادة، عايز تفضحنا؟ أنا اتنبح حسي معاك!".

زفر الأب بغضب، ثم ضيَّق عينيه، مضيفاً تهمة أخرى:

"ووالدتك قالتلي إنك مصلتش المغرب ولا العشا.. قوم اتوضى وصلي حالاً.. قوم!".

قام رامي مطأطئ الرأس، متظاهراً بالندم والخشوع، وسار نحو الحمام، فتح الصنبور ليسمعهم صوت الماء، وعيناه معلقتان بباب غرفة نومهما.

صوت خطوات ثقيلة.. ثم صوت الباب يُغلق.

"تكة" المفتاح.

اتسعت عينا رامي بلمعة انتصار.. جفف يديه بسرعة البرق، لم يتَّجه للصلاة، بل قفز نحو السرير ليرفع المرتبة.. لقد حانت اللحظة.

اتسعت عينا رامي بلمعة انتصار، لكنَّ صدره كان يعلو ويهبط بعنف، كأنَّ اللذة لا تأتي وحدها، بل مصحوبة بذعرٍ لا يفهمه. مدَّ يده تحت المرتبة... ثم توقَّف لحظة.

"لو دخلوا دلوقتي؟".

ابتلع ريقه، وضغط على أسنانه.. ثم أكمل.

***

صمت رامي بعد أن وصف لحظة قفزه نحو المجلة.. كان يلهث، وكأنه لا يزال ذلك المراهق المذعور.

هنا، لم يستطع أن يبقى صامتاً، لقد اتضحت الصورة أمامه تماماً. ضغط زر الميكروفون، وتحدَّث بنبرة هادئة، لكنها حازمة، نبرة الطبيب الذي وضع يده أخيراً على الجرح:

"رامي.. أنت لم تكن تبحث عن المتعة الجنسية في تلك اللحظة.. أنت كنت تبحث عن (الانتصار).

أكمل تحليله، و هو يحدِّق عبر الشاشة:

"والدك صادر كلَّ شيء في حياتك.. صلاتك، درجاتك، وقتك، وحتى أنفاسك، الجنس بالنسبة إليك لم يكن رغبة، بل كان المساحة الوحيدة التي تملكها، ولا يملكها هو.. هو (سرُّك الصغير) الذي يجعلك تشعر أنك حر".

صمت رامي قليلاً، وكأنَّ كلماته فككت شيئاً صلباً بداخله، ثم قال بصوت خافت:

"يمكن.. بس ده علاقته إيه باللي بعمله دلوقتي؟ أنا بقيت حرّ خلاص".

ابتسم بحزن، وأجاب:

"لأ يا رامي، أنت لسه مسجون في نفس الغرفة، علاقاتك المتعددة دلوقتي، وهروبك من أي ارتباط حقيقي، ومجلة (السكس) القديمة.. كلها نفس الشيء، أنت بتدور على (مهرب) مش (شريك)، أنت بتعمل علاقة عشان تثبت لنفسك إنك مسيطر، وإن محدش يقدر يمتلكك زي ما والدك عمل.. أنت بتعاقب كلّ الستات دول بدال ما تعاقب أبوك."

-أشكرك يا رامي.. أعتقد أنَّ جميعنا مستعدون لسماعك يا آمال.

***

"يا بنتي ده عيل ضايع وارث قرشين من أبوه، ولما يخلصوا الله أعلم هيعمل إيه.. متتعلقيش بيه أكتر من كده؟".

"ومين قالك إني متعلقة بيه؟ أنا بعيش لي يومين.. كنت سمعت أختي بتقولي (أيام الجامعة أحلى أيام) وأديكي شايفة دفعتنا كلها عيال صغيرة.. ده اللي هيعيشني أحلى أيام، وبعدين".

"يا بجاحتك!".

يظهر شاب يرتدي قميصاً أبيض، فتح منه عدداً لا بأس به من الأزرار ليظهر جزءاً من شعر صدره القليل، يضع نظارة شمسية، وشعره مصفف "استشوار."

نزل من سيارته الحمراء وشاورَ بيديه.. أتت إليه "آمال" مسرعة:

"إيه يا بني.. اتأخرت ليه؟".

"إيه اللي موقفك مع البت الكئيبة دي؟."

"حرام عليك والله.. أنت ظالمها".

"طب اركبي.. اركبي".

ركبت "آمال" السيارة مع الشاب، وسألته: "هتوديني فين النهاردة؟".

"نطلع برا المخروبة دي الأول، وبعدين نلفّ شوية بالعربية.. مش كفاية متخرَّج منها من سنتين، ولسه باجي كل شوية علشان خاطرك".

"آه صح.. عملت إيه في الإنترفيو بتاع النهاردة؟".

"لأ، مروحتش.. بابا كلم لي صاحبه، ونازل شغل في شركته بكره".

"أبوك ده غريب! مش كان قايل مش هيساعدك في حاجة؟".

"ما أنا زقيت عليه أمي.. النسوان يا بنتي ليهم سحرهم الخاص".

قالها ووضع يده على فخذها، وبدأ يتحسَّسها.

***

انتفض في مقعده، قطع تدفُّق الحكاية.

"كفاية لحد هنا".

قالها بصوت حاد، لاهث قليلاً،

" مش محتاجين نعرف تفاصيل أكتر.. المشهد واضح. الشخص ده بيستخدم (الابتزاز العاطفي) مع والدته عشان ياخد اللي هو عايزه، وبيستخدم (الابتزاز الجسدي) معاكي عشان يثبت لنفسه إنه مسيطر".

"هو مش شايفك شريكة.. هو شايفك (مكافأة) زيك زي الشغلانة اللي أبوه جابهاله.. الاتنين جوله بفهلوة، والاتنين مش من حقه".

هنا، كسر "رامي" حاجز الصمت، وتحدَّث بنبرة تحليلية باردة تستفزُّ الأعصاب:

"أنا لا أوجِّه حديثي لآمال، لكن لتحليلك أنت يا دكتور.. ليه

منشوفش إن الشاب ده شاف (صيدة سهلة) قدامه، واستغل الفرصة؟ ومن سياق الكلام هو معملش غير شوية تجاوزات بسيطة".

اشتعل مربَّع "عبد المجيد"، وتدخَّل بصوت يرتجف غضباً ونخوة:

"ماذا تعني بـ (تجاوزات بسيطة)؟! هل إذا كنت تمتلك أختاً، أو عائلة من الأصل، كنت سترى هذا التصرف بسيطاً؟".

شعر أنَّ الجلسة على وشك الانهيار، فتدخَّل بسرعة ليمنع القنبلة من الانفجار في وجه الجميع، ووجَّه حديثه لرامي محاولاً ضرب منطقه في مقتل:

"رامي.. هل تقتنع بمعنى كلمة (صيدة سهلة) أنه أصبح يمتلكها؟".

صمت رامي للحظة، فأكمل ضاغطاً على الجرح:

"بعيداً عن آمال.. إن كان وصفك صحيحاً، ماذا عن أهلها؟ وماذا عن زوجها مستقبلاً؟ هل تعتقد أنَّ هذا الشاب جنى عليهم جميعاً.. أو على الفتاة فقط؟".

ثَقُل الهواء في الغرفة الافتراضية، وكأنَّ التوتر أصبح غازاً يخنق الأنفاس.. طلب هدنة إجبارية: (خمس دقائق راحة، ثم يعودون).

على الشاشة، ظلَّت المربعات السوداء صامتة كعادتها.

غادرت "ليلى " الإطار، تاركة مقعدها فارغاً، بينما بقي "عبد المجيد" متسمِّراً في مكانه، يحدِّق إلى الكاميرا بتلك الابتسامة البلاستيكية الثابتة، وكأنه تمثال شمعي نسي أحدهم أن يطفئه.

انسحب نحو النافذة، هرباً من تلك الأعين الجامدة، أشعل سيجارة، وراح يتأمل مبنى المستشفى الكئيب الذي يحفظ تضاريسه عن ظهر قلب. لفحت وجهه نسمة هواء باردة، أعادت إليه توازنه قليلاً، لكنَّ صفو اللحظة عكَّره ذلك (الحاجز) الأبدي: القضبان الحديدية.

مرَّرَ أصابعه على برودة الحديد، وتساءل للمرة الألف: "ماذا كان يدور في عقل المهندس، وهو يزرع القضبان في نافذة غرفة (الأطباء)؟ أم أنها كانت في الأصل زنزانة مريض، ثم تبدلت اللافتات.. كما تبدل كلُّ شيء؟. "

طرد السؤال العبثي المتكرر من رأسه، سحق عقب السيجارة بقوة، وعاد إلى مكتبه.. ليواجه المربعات من جديد".

عاد إلى مقعده، وأشار إلى "ليلى " لتبدأ.. فاشتعل مربَّعها..

***

تجلس خلف اللابتوب في غرفتها التي تشبه علبة حلوى وردية.. مكتب غير مهندم، فوضى محببة، وصور مراحل عمرها المعلقة على الحائط، تشهد على براءة لم تلوَّث بعد.

تمسك القلم وتتابع درساً مملاً، لكنَّ جسمها يرسل إشارات تمرُّد.

داهمها ألم مفاجئ أسفل البطن.. نغزة مألوفة وثقيلة.

"يااااه.. مش وقتك خالص! لسه قدامك كام يوم".

استسلمت للألم، زحفت إلى المطبخ لتعدَّ مشروباً دافئاً، وعادت لتجد الساعة قد تجاوزت الثانية والنصف صباحاً. ألقت اللابتوب جانباً، وهرعت إلى الهاتف.. الملاذ الوحيد.

"صاحي؟".

مرت دقائق ثقيلة فقدت فيها الأمل، قبل أن يضيء الاسم:

"إيه يا بنتي.. مش قولتي هتروحي تسمعي درس التاريخ؟".

"لا ما هو.. البريود جاتلي فمش قادرة".

"إيه ده! مش لسه باقي على ميعادها يومين؟".

ضحكت، وهي تتلوى من الألم:

"نفسي تبطل تحسب لي!".

لم تدرك أنَّ "حسابه" لمواعيدها ليس اهتماماً بقدر ما هو "مراقبة".

"طب بقولك إيه.. ما تيجي نتكلم فيديو كول؟".

"لا مش هينفع".

"ليه؟".

"لابسة براحتي شوية.. حرانة ومش قادرة أقوم أجيب حاجة ألبسها".

"يا بنتي أنتي وحشتيني أوي، وعايز أشوفك".

صمتت، فمارس هو لعبته المفضلة.. (لعبة الذنب):

"خلاص براحتك.. طالما مش واثقة فيا".

الجملة السحرية التي تفتح الأبواب المغلقة. ردت بسرعة:

"لا طبعا.. خلاص اتصل".

رنَّ الهاتف.. حاولت جاهدة رفع "التيشيرت" لتخفي ما يمكن إخفاؤه. ظهر وجهه على الشاشة، وعيناه تتفحصان الكادر بنهم.

حاولت كسر التوتر:

"إيه اللي مصحيك لحد دلوقتي؟".

"ولا حاجة.. قاعد مش عارف أنام، بس باين إن أمي دعيالي".

"ما تحترم نفسك."!

قالتها بصوت يحاول ادِّعاء الحزم.

"خلاص متزعليش.. وبعدين ما أنتي على طول بتلبسي نص كم، فرقت إيه ده عن الـCut ؟.. بقولك إيه، تحبي نجرب حاجة جديدة؟."

"إيه هي؟".

"هننام إحنا الاتنين، والكول مفتوح.. عشان نبقى أول حاجة نصحى عليها نشوف بعض".

دغدغت الفكرة مشاعرها.. بدت لها قمة الرومانسية.

"أنت رومانسي من إمتى؟".

"عيب عليكي.. في حاجات شايلها للحبايب".

استسلمت ليلى للنوم سريعاً، يغمرها شعور زائف بالأمان والحب.. لم تكن تعلم أنَّ "الحارس" هو "اللص".

مع تقلبها في النوم، انزلق التيشيرت ببطء، كاشفاً عن جزء لا بأس به من جسمها.

في الطرف الآخر، لم يكن هناك عاشق يتأمل.. كان هناك "صياد" يوثِّق.

ببرود تام، التقط عدة صور "سكرين شوت"، تأمل الصيد الثمين، ثم أغلق المكالمة.

تسللت خيوط نور الصباح لتداعب وجهها، ففتحت عينيها العسليتين اللتين تملكان سحراً خاصاً حين يعانقهما ضوء الشمس. كانت يدها تتحرك غريزياً نحو هاتفها قبل أن يرتد إليها وعيها الكامل.

تفحصت الشاشة.. المكالمة لم تستمر طويلاً بعد نومها. ابتسمت بسذاجة وهي تحدث نفسها: "أكيد نام هو كمان".

كتبت له رسالة سريعة: "صباح الخير يا بيبي."

ثم ألقت الهاتف بإهمال، واتجهت إلى المطبخ.

هناك، كان المشهد المعتاد.. الأم واقفة، يكسو وجهها ذلك البؤس المقيم، وكأنَّ الفرح ضيف ثقيل لا يزور هذا البيت.

"صباح الخير يا ماما".

ردَّت الأم دون أن تلتفت، بصوت رتيب:

"صباح الخير يا ليلى.. أعملك فطار قبل ما أنزل؟".

عقدت ليلى حاجبيها باستغراب:

"هتنزلي ليه؟ مش النهاردة السبت أجازتك؟".

"عمتك مخنوقة شوية.. هنزل أقعد معاها في النادي".

تنهَّدت الأم، وهي ترتدي حقيبتها، وأشارت نحو المطبخ:

"الفطار في الميكروويف.. خدي بالك من نفسك، ومتفتحيش الباب لحد".

زفرت ليلى بضيق، وتمتمت بصوت مسموع:

"خلاص يا ماما.. حفظت الأسطوانة اللي بسمعها كلّ يوم دي".

اقتربت الأم، طبعت قبلة سريعة، وباردة على جبين ابنتها، ثم غادرت.. تاركة خلفها صدى صوت الباب، وهو يغلق، ليعلن بدء يوم آخر من الوحدة.

ما إن أنهت "ليلى" فطورها حتى هرعت تتفحص هاتفها.. شاشة سوداء صامتة. زفرت بضيق، وجرت قدميها نحو مكتبها لاستكمال درس التاريخ الذي يبدو أنه لن ينتهي.

كانت معركة غير متكافئة بين "التاريخ" وبين "الحاضر".. تارة تقرأ سطراً عن ثورة ١٩، وتارة تختلس النظر إلى الهاتف بقلب يرتجف. مرت الساعات ثقيلة، بطيئة، ومملة.. الواحدة، الثالثة، الخامسة.. حتى دقت الساعة السادسة مساءً.

أخيراً.. انتفض الهاتف، وأصدر صوته المبهج.

قفزت من مكانها والتقطته بلهفة المحبِّ، لتجد الرسالة المنتظرة:

"صباح الخير يا لولو".

ردَّت بسرعة، وكأنها تعاتبه برقة:

"قول مساء الخير.. كل ده نوم؟".

جاء ردُّه يحمل عذراً جاهزاً، ومغلَّفاً بلمسة غزل رخيصة:

"نمت نومة امبارح.. كان نفسي أصحى على صورتك بس فوني فصل شحن".

صدقته فوراً.. أو أرادت أن تصدِّقه:

"لا، مش مشكلة تتعوض.. أنا نمت متطمنة أوي امبارح".

"خلاص يا ستي.. كل يوم هنيمك أنا".

"اتفقنا".

ما إن اطمئن أنها "متاحة" وتحت السيطرة، حتى قرر إنهاء المحادثة ببرود:

"هسيبك تذاكري، وأنزل أنا على القهوة".

"خد بالك من نفسك".

"حاضر.. باي".

"باي".

***

ألقى وليد بعد كلماته على حديث ليلى، ثم وجَّه نظره نحو "يحيى".

أعطاه الإشارة ليبدأ.

لم ينتظر "يحيى" مقدمات، وبدأ يتحدَّث بصوت فيه انكسار طفل، رغم أنه رجل بالغ.. أخذنا مباشرة إلى صالة منزلهم القديم.

***

"بقولك أنا سامعاه بيوشوش واحدة في التليفون، وهو في الحمام!".

كان صوت "بهيرة" يخرج مخنوقاً، ممزقاً، وهي تنهار من البكاء أمام أختها.

حاولت الأخت تدارك الموقف، وهي تشير بعينها نحو يحيى، الطفل الواقف في الزاوية.

"امسكي نفسك مش كده.. ابنك بيبص عليكي".

انتبهت أمه لوجوده فجأة، وكأنها وجدت طوق النجاة.. نادته بصوت مرتعش:

"تعالَ يا يحيى.. تعالَ يا حبيبي".

جرى عليها.. احتضنته بقوة، قوة عصرت ضلوعه الصغيرة. في تلك اللحظة، لم تكن تحضنه لتحميه، كانت تحضنه وكأنها "تستردُّ قوتها المفقودة منه".

***

أخذ يحيى نفساً عميقاً، وكأنه يغوص لانتشال ذكرى ثقيلة من قاع الذاكرة، وقال: "بعدها.. قررت تتكلم مع أبي".

صمت قليلاً ثم أكمل: "كان أبي هادئاً على غير عادته.. هدوءًا يسبق العاصفة، وبدأ يتكلم بنبرة رزينة مستفزة:

"أنا قررت أتجوز يا بهيرة".

"كان لكلماته أثر الصاعقة على أمّه، كان يستمع إلى حديثهما من خلف الباب، ولحسن حظه أنه لم يرَ وجهها في تلك اللحظة، لكنَّ كلَّ شيء كان مرسوماً في مخيلته.. ملامحها التي تجمدت، أنفاسها التي انقطعت. لم تعقب أمه بكلمة، فاستغلَّ أبوه الصمت، واستكمل حديثه مبرراً:

"هتقي ربنا فيكي وفي يحيى ابني.. وهعدل بينكم.. أنتِ ست مؤمنة، وعارفة إن دي حاجة ربنا مشرعهالي".

هنا خرج صوت أمّه أخيراً، مبحوحاً، ولكنه حاسم، قاطعته قائلة:

"طب لو رفضت؟."

ردَّ ببرود الواثق:

"هترفضي حاجة ربنا محللهالي؟".

"ليك الاختيار.. يا تختار بيتك وابنك.. يا جوازتك الجديدة".

"أنتي كده بتهدّي كلّ حاجة يا بهيرة."

"أنت اللي بتهدّ مش أنا.. خد وقتك واختار".

هرب يحيى مسرعاً من أمام الباب، قبل أن تفتح أمُّه باب الغرفة.. لمح طرف ثوبها، وهي تتجه إلى الحمام.. وبعد ثوانٍ، كان صوت بكائها

يهزُّ أرجاء المنزل.. نشيج مكتوم تحول إلى صراخ.

وفي وسط هذا الانهيار، سمع صوتاً آخر حسم الأمر.. صوت باب المنزل، وهو يُغلق بعنف.. لقد غادر أبوه.

***

تمتم بكلمات جوفاء، من تلك التي تُحفظ في الكتب، ولا تعني شيئاً، ثم أعطى الإشارة لجنى أن تتحدث.

توقفت "جنى" والتفتت ببطء لتواجه صاحب الصوت، فوجدت "هاني" يقف أمامها يلتقط أنفاسه.

لم يكن هاني فارس الأحلام الذي رسمته في خيالاتها الرومانسية؛ كان شابّاً بسيطاً، نحيف البنية، قد زحف الصلع الوراثي مبكِّراً على مقدمة رأسه؛ ليمنحه عمراً أكبر من سنِّه، وتوسطت جبهته "زبيبة صلاة" داكنة تشي بالتزامه.

كان حليق الذقن تماماً، وملابسه مهندمة بعناية فائقة تفوق العادة، قميصه مكويٌّ بصرامة، وكأنه كان يجهِّز نفسه منذ الصباح الباكر لهذه اللحظة الحاسمة.

حاولت أن تخفي دهشتها، وردَّت بصوت متزن:

"إزيك يا هاني؟".

فرك يديه بتوتر ملحوظ، وقال بصوت مهتز:

"الحمد لله تمام.. تسمحي لي؟ لو ممكن نتكلم شوية قبل ما تمشي؟".

عقدت حاجبيها باستغراب، فهو لم يكن يوماً من دائرة أصدقائها المقربين:

"خير؟ في حاجة حصلت؟".

تدارك الموقف بسرعة، وعيناه تتوسلان إليها ألا ترفض:

"لا، لا، خالص.. خير بإذن الله، كنت عايزك في موضوع شخصي جداً، وأوعدك مش هاخد من وقتك أكتر من خمس دقايق".

أمام إصراره المؤدَّب، ولأنها تودع الكلية بلا وجهة محددة، أومأت بالموافقة:

"تمام.. مفيش مشكلة".

عادت خطواتها أدراجها إلى داخل الحرم الجامعي، وسارا جنباً إلى جنب في صمت محرج، حتى وصلا إلى مقعد خشبي قديم في زاوية هادئة بحديقة الكلية، بعيداً عن صخب الوداع والضحكات الباكية.

جلسا متباعدين قليلاً، العصافير تزقزق فوقهما، وهاني يحدِّق إلى الأرض يجمع شتات شجاعته. تنحنح أخيراً ورفع بصره إليها، لتفاجأ "جنى" بنظرة صدق لم ترها من قبل.

"أنا مش عارف أبدأ إزاي الصراحة.. الكلام مترتب في دماغي بقاله سنين، بس ساعة الجد طار".

صمت لثانية، ثم اندفع كمن يلقي بنفسه في النار:

"بصي يا جنى.. أنا معجب بيكي.. لا، أنا بحبك الصراحة، ومش من دلوقتي، ده من سنة أولى".

اتسعت عينا جنى بذهول، بينما استمرَّ هو في تدفق اعترافاته كشلال محبوس:

"بقالي أربع سنين ماسك نفسي، بفرملك مشاعري كل يوم بالعافية، على أمل إني أجي أصارحك، وأنا (جاهز). كنت بحلم إني أقف قدامك وأنا معايا شقتي، وأقدر أفتح بيت يليق بيكي".

تنهَّد بأسى، وظهرت في صوته نبرة خوف حقيقي:

"بس النهاردة آخر يوم.. أدركت إنك لو مشيتي، وخرجتي من البوابة دي، أنا مش هعرف أوصلك تاني، وممكن تضيعي مني للأبد، فقررت أخد الخطوة دي، حتى لو متأخرة شويتين تلاتة، وحتى لو لسه ببدأ طريقي.. بس مكنش ينفع أسيبك تمشي من غير ما تعرفي".

حاولت جنى أن تستجمع شتات أفكارها، فالمفاجأة عقدت لسانها للحظات. نظرت إليه، ثم قالت بنبرة يشوبها الارتباك: "بصراحة يا هاني.. أنا مندهشة جداً من كلامك، مكنتش متوقعة خالص".

قاطعها هاني بسرعة، وكأنه يخشى أن يسمع رفضاً متسرعاً ينهي الحلم في مهده: "أنا فاهم، ومقدر ده كويس والله، ومش طالب منك ردّ، أو قرار دلوقتي حالاً".

التقط أنفاسه، ثم استكمل بنبرة رجاء هادئة:

"كل اللي طالبه منك فرصة.. مقابلة تانية نتكلم فيها بهدوء، تعرفيني فيها أكتر، وأعرفك بعيد عن دوشة المحاضرات والامتحانات، فرصة بس أثبتلك إني جدير بيكي".

ساد بينهما صمت قصير، كانت جنى تحسب فيه الحسابات بسرعة البرق. هل تخسر شيئاً؟ لماذا لا تمنح نفسها فرصة الشعور بأنها "مطلوبة؟".

كسرت الصمت قائلة:

"الخميس الجاي مناسب".

تهلل وجه هاني، وكادت الكلمات تتعثر في فمه من الفرحة:

"كويس.. كويس جداً".

استدركت جنى بسرعة، لتضع حدوداً للقاء الأول، محافظة على مسافة الأمان:

"بس نتقابل هنا في الكلية.. أنا جاية أخلص ورق التخرج، ومحتاجة أكون موجودة، بلاش بره، خلينا هنا في نفس المكان".

"لماذا الآن؟ لماذا تركتني وحيدة كلَّ هذه السنين في مواجهة رعب العنوسة؟".

لكن، وسط كلِّ هذه الضوضاء العاطفية، كان هناك سؤال واحد حادٌّ وقاطع كالنصل، هو الذي سيحدد مصير هذه العلاقة قبل أن تبدأ: "إلى متى؟".

"كم عاماً سأنتظر؟ هل هي سنة؟ اثنتان؟ خمس؟ هذا الرقم هو "كلمة السر".

أتى الصباح، وذهبت إلى الكلية بقلب يقرع طبول الحرب.

في المكان نفسه، وعلى المقعد الخشبي نفسه، وجدته بانتظارها. كان قد وصل قبل الموعد بكثير كعادته، يبدو عليه القلق والترقب.

جلست أمامه، وبعد عبارات ترحيب مقتضبة، وحوار قصير حاول فيه هاني أن يُبدي جانبَه اللطيف، وشخصيته الهادئة.

لم يترك هاني مجالاً للتخمين، وكأنه قرأ أفكارها، وعرف مكمن الخوف في صدرها، فألقى ورقته الرابحة بثقة:

"والدي ساعدني، واستلمت شقتي الشهر اللي فات.. جاهزة على المفتاح، أنا قدامي جيش سنة، هدخل الشهر الجاي إن شاء الله، وبعد السنة دي، أقدر أجي أتقدم رسمي وأنا ساند طولي، لأن عندنا في البيت مبدأ صارم: (مفيش خطوبة لراجل مش شغال").

تنهدت جنى بعمق، وكأنَّ جبلاً انزاح عن كاهلها.

"سنة واحدة".. كان رقماً متفائلاً جداً، بل وسحريّاً مقارنة بسيناريوهات السنوات العجاف التي افترضتها في ليالي الأرق. ما جعلها تنتظر أعواماً بلا هدف، يهون عليها انتظار عام واحد بـ ٣٦٥ ليلة فقط، بهدف واضح، ونهاية سعيدة.

سيزول ضغط أمِّها، وسينتهي جلد ذاتها، وستسكت ألسنة المجتمع.

تحوَّل اللقاء فجأة من مفاوضات شاقة إلى حديث ذي شجون. انكسر حاجز الجليد، وأصبحت جنى تتحدث بحرية أكبر، تضحك من قلبها تارة، وتمازحه تارة أخرى.

اندمجت في الحديث معه، فرأت فيه جانباً لطيفاً، وخفيف الظلِّ لم تكن تراه من قبل، واكتشفت أنَّ "هاني" ليس مجرد زميل، بل هو "ونس" حقيقي.

وبينما هما غارقان في فقاعتهما الخاصة، قاطعهما ظلُّ رجل وقف أمامهما.. رجلٌ في أواخر الثلاثينيات، يكسو ملامحه وقار العلماء.

قال بصوت رخيم وهادئ:

"إزيكم يا شباب.. عاملين إيه؟".

انتفض هاني وجنى واقفين احتراماً فور رؤيته:

"دكتور سعيد! أهلاً بحضرتك يا دكتور".

***

يبدو أنَّ قرار إنهاء الجلسة بجنى كان صائبًا، لقد طردت الطاقة السلبية من الجلسة بقصة حبها الجديدة.

أغلقتُ الشاشة، زحفتُ إلى سريري في الغرفة التي اجتاحها برد قارس تسلل من النافذة المفتوحة. غالبني الكسل -أو ربما الرغبة في الشعور بالخدر- فلم أنهض لإغلاقها، آثرتُ أن أنام في هذا الصقيع، وكأنني جثة في ثلاجة حفظ الموتى.

(الجلسة الثالثة)

انسلخ دكتور "وليد" من معطفه الطبي المثقل بأوجاع النهار، وألقى بجسمه المنهك على مقعد المكتب الجلدي .

كان يوماً حافلاً بالمشقة، صراعات إدارية عقيمة، ومرضى يستنزفون ما تبقى من طاقته.

مارس طقوسه المعتادة كمن يستعد لمعركة، أو ربما لهروب. ملأ الغرفة بسحب كثيفة من دخان سجائره، ووضع كوب القهوة الداكن أمامه كدرع يحتمي به. رائحة التبغ المحترق المختلطة بالبن صنعت غلافاً جويًّا خاصًّا، يعزله عن عالم المستشفى، ويجهزه لعالم "الأشباح " الافتراضي.

دقت الساعة موعد البدء.

بدأت المربعات السوداء تُضاء تباعاً على شاشة حاسوبه، معلنة حضور أصحابها، لكنَّ عينيه كانتا تبحثان عن مربَّع محدد.. المربع الذي اعتاد أن يكون أول الحاضرين، المربع الذي كان يبثُّ نوعاً من "الأمان الأبوي" وسط هذا التخبط.

لكنَّ مكانه كان فارغا، لم يظهر "عبد المجيد".

مرَّت الدقائق ثقيلة، لزجة، خمس دقائق.. عشر دقائق.. ربع ساعة كاملة.

كان الصمت يخيِّم على الجلسة، لكنه لم يكن صمت الانتظار المعتاد، بل كان صمتاً مشحوناً بالهواجس. الجميع يتذكرون حكايته في المرة السابقة: (العيش وحيداً، الفجر، البيضات الثلاث، وقطة الشارع التي قد تنهشه إن مات).

كان السؤال معلَّقاً في عينيِّ "ليلى" القلقة، وحتى في جمود مربع "رامي": "هل حدث له مكروه؟".

قلَّب وليد أوراقه بتوتر ملحوظ، أصابعه ترتجف قليلاً، وهو يبحث بين الملاحظات.. "هل أخذت رقم هاتفه؟."

" اللعنة، لقد كان تواصلاً عبر الإيميل فقط في البداية."

شعر بمسؤولية ثقيلة تجثم على صدره؛ هو من جمع هؤلاء الغرباء، وهو الآن عاجز عن الاطمئنان على أكثرهم هشاشة.

أدرك وليد أنَّ استمرار الصمت سيحوِّل الجلسة إلى مأتم قبل الأوان، فقرر التدخُّل لكسر الجمود، محاولاً تغليف قلقه بنبرة عملية مصطنعة.

تنحنح بصوت مسموع، وقال محاولاً استجماع صوته المهني:

"مساء الخير يا جماعة.. غالباً أستاذ عبد المجيد عنده عطل فني أو ظرف طارق، (الغائب حجته معاه) زي ما بيقولوا. مش هنقدر نأخر الجلسة أكتر من كده".

تجاهل نظرات التشكيك التي بدت واضحة، رغم رداءة الصورة، ووجَّه بصره نحو المربع الأكثر توتراً الليلة، محاولاً تحويل الدفة:

"ليلى.. المرة اللي فاتت وقفنا عند نقطة مهمة جداً في حكايتك.. تحبي تكملي؟."

"مبروك يا ليلى يا حبيبتي.. قولي لي نفسك في إيه أجيبهولك؟".

كان صوت الأب عبر الهاتف يحمل نبرة احتفالية روتينية، كمن يؤدي واجباً ثقيلاً.

"الله يبارك فيك يا بابا.. لما تيجي إن شاء الله نحتفل".

"أنا ممكن أتأخر شوية النهاردة.. نامي أنتي، وممكن نحتفل في الـ Weekend

"تمام.. باي".

أغلقت الخطَّ. الكلمة السحرية في هذا المنزل هي الـ(Weekend) إنه الموعد الوحيد الذي يجمع شتات هذه العائلة.

تركت الهاتف، وتوجهت إلى غرفة أمِّها، وعقلها يطحن السؤال الأزلي الذي كبر معها: "لماذا توجد غرفتا نوم؟."

منذ وعت على الدنيا، لم ترَ أبويها في غرفة واحدة. حياتها جدول مواعيد صارم؛ إفطار وغداء صامت يوم الجمعة، وباقي الأسبوع مجرد

أشباح تمرُّ بجوار بعضها.. الأب في عمله أو مع أصدقائه حتى الفجر والأم في عالمها الخاص.

دفعت باب غرفة الأم.. كانت نائمة، وفي يدها سيجارة كادت تحرق أصابعها، ورمادها يتناثر على الملاءة كغبار المعارك الخاسرة.

أيقظتها بلهفة:

"ماما.. بابا جاب النتيجة.. أنا جبت مجموع إعلام! أنا حققت حلمي".

انتفضت الأم، نظرت إليها بعينين ذابلتين، ثم احتضنتها وانخرطت في نوبة بكاء مريرة.. أكانت دموع فرح؟ أم حسرة على عمر ضاع؟ لم تفهم ليلى، لكنَّ الجوَّ كان مشحوناً برائحة الاكتئاب والتبغ، فآثرت الانسحاب، وتركت أمها لتعود إلى نومها.. أو هروبها.

عادت ليلى إلى غرفتها.. وحيدة تماماً في لحظة انتصارها.

جلست أمام الهاتف.. ذلك الصندوق الأسود الصغير. تارة تنفر منه، وتارة يجذبها كالمغناطيس. فتحت (الشات اللعين)..

كانت قد عاهدت نفسها أن تتوقف، أن تحمي كرامتها بعد أن رأت وجهه الحقيقي، وطلباته الرخيصة، لكنَّ الوحدة كانت أقوى من الكرامة.

كتبت بأصابع مرتجفة:

"مفيش مبروك؟.. نجحت وجبت المجموع اللي كنت بحلم بيه".

مرَّت ثوانٍ بدت وكأنها دهر، قبل أن يظهر الردُّ جافّاً، بارداً، وقاسياً:

"مبروك".

جُنَّ جنونها.. أين الحبُّ؟ أين اللهفة؟

"أنا مش مصدقاك.. هو أنت لسه زعلان؟ إزاي تطلب مني طلب زي ده أصلاً؟".

هنا، ألقى هو بشباكه الأخيرة، مستخدماً السلاح الذي لا يفشل مع فتاة يتيمة المشاعر:

"أنا مش زعلان من كده.. أنا زعلان إنك مش واثقة فيا. المفروض يبقى فيه ثقة عمياء بينك وبين الشخص اللي هيبقى راجلك.. وجوزك".

كلمة "جوزك" كانت المخدِّر الذي شلَّ تفكيرها.

تهاوت حصونها.. نسيت تحذيرات عقلها، وتلاشت المخاوف أمام حلم "الاحتواء".

لم تقاوم هذه المرة.. وبكامل إرادتها -أو هكذا خُيّل إليها- منحته ما أراد.. ونال هو مراده.

خيَّم صمت ثقيل على الغرفة الافتراضية، بعد اعتراف ليلى الأخ
لم يكن صمت إدانة هذه المرة، بل صمت "صدمة". الجميع أدركوا أ
تلك الفتاة المتمردة ذات الشعر المصبوغ واللسان السليط، ليست سوى
طفلة تائهة بحثت عن أب، فوجدت ذئباً.

زفر الدكتور وليد دخان سيجارته ببطء، وقال بنبرة هادئة وحازمة،
قاصداً أن يسمع الجميع، وخاصة رامي:

"ليلى.. اللي حصل ده مش (سقوط)، ده (استغلال)، في فرق كبير
بين حد بيبيع نفسه، وبين حد بيتسرق منه احتياجه للأمان. شكراً
لجرأتك".

ثم تحدَّث إلي أمال، و أطلق لها العنان بأن تبدأ.

***

ظلَّت أمال تدور في فلك السؤال الأزلي: هل أحبه؟

في كلِّ مرة، كانت الإجابة تأتيها باردة، واقعية، ومجردة من الرومانسية: (لا يهم.. المهم أنني سعيدة الآن).

كانت تنتظر "فسحة الخميس" كما ينتظر السجين ساعة التريض. ذلك اليوم لم يكن مجرد نزهة، بل كان عملية "انتزاع" لحقها في الحياة من فكيّ منزلها الكئيب، والجدران التي تطبق على أنفاسها.

وفي مقابل هذا الهروب، لم تكن تمانع دفع "ثمن التذكرة".

كانت تكافئه بابتسامة عريضة، وبصمت مطيع، وربما ببعض التجاوزات المحسوبة في سيارته المظللة، أو قبلات مسروقة في مصعد بناية ما.. لا يهمُّ المكان، ولا يهمُّ الفعل، ما دامت تبدو في المرآة "سعيدة."

كانت تدرك بوضوح قاسٍ أنَّ هذه العلاقة مجرد "مسكن للألم" وليست علاجاً. كانت تعلم يقيناً أنَّ هذا الشابَّ الذي يعبث بشعرها الآن، لم يتحمل مسؤولية نملة في حياته، فكيف يصبح زوجاً أو أباً؟ إنه مجرد "رفيق رحلة" مؤقت.

"لا بأس".

تمتمت بها لتطرد جيوش المنطق من رأسها.

"المهم أنَّ الخميس القادم يقترب.. وأنا أحتاج إلى هذه الجرعة".

أغلقت ملفَّ المستقبل، وبدأت تخطط: ماذا سترتدي له يوم الخميس؟ وكيف ستجعله يضحك؟ وكيف ستدفع الثمن هذه المرة؟

بينما كانت أمال في سيارته، تسرق اللحظات الأخيرة من نزهتها المعتادة، صدح رنين هاتفها ليعلن نهاية الوقت المستقطع. نظرت إلى الشاشة بملل.. "أختي".

تأففت داخلياً، وتمتمت بضيق:

"أكيد اتأخرت وهتبدأ وصلة الزن".

طلبت منه ببرود أن ينزلها في "المنطقة الآمنة"، ذلك الركن المعتاد قبل منزلها بمسافة، حيث لا تطالها أعين الجيران أو المعارف.

لكنَّ الهاتف لم يصمت.. رنَّ مرة، واثنتين، وثلاثاً بإلحاح غريب وتَّر وتيرة أعصابها.

ردَّت أمال أخيراً بنبرة حادَّة وعصبية:

"في إيه؟ بترني كل ده ليه؟ أنا جاية أهو!".

جاءها صوت أختها المتهدِّج، ممزوجاً ببكاء هستيري اخترق طبلة أذنها: "إلحقيني يا أمال.. بابا مات!".

في سرادق العزاء، لم يكن بكاء "أمال" مجرد حزن على الفقد، بل كان نعيراً يخرج من روح تحترق بالذنب، كانت تبكي بحرقة تفوق إخوتها جميعاً، لا لأنها الأقرب، بل لأنها الوحيدة التي تشعر بأنَّ يدها ملطخة بدم هذا الرحيل المفاجئ.

هل مات حسرة؟ هل شعر بذنوبها فخذله قلبه؟

لم تكن علاقتها بأبيها عادية؛ كانت هي "وتين" قلبه، رغم أنها ليست الكبرى، ولا الابنة الوحيدة، فإنها كانت استثناءه الجميل. كانت

ظلَّه الذي لا يفارقه؛ تنتظره بلهفة، وتصحبه لعمله، لا تطيق غيابه ساعة.

لكنَّ الجامعة.. آه من الجامعة! حين تسلل ذلك الشاب إلى حياتها، وضعت "أمال" جداراً عازلاً بينها وبين أبيها.

بدأت تتهرَّب من عينيه، وكأنها تخشى أن يقرأ تفاصيل سقطاتها المكتوبة على جبهتها .

تحوَّل الحبُّ الصافي إلى عتاب صامت، ومتمرد:

"لماذا لم تمنحني حياة الرفاهية مثل أصحابي؟."

بدأ ضياعها في الجامعة، وانتهى سندها، ومأمنها، وهو يعتقد أنها هناك تدرس، بينما كانت هي تلهو.

أمام القبر المفتوح، صمت كلُّ شيء إلا ضجيج أفكارها المرعبة. حين وُري جثمانه الثرى، تسمَّرت مكانها، وسألت نفسها برعب:

"هل يرى الآن ما كنت أفعل؟ هل ستُعرض عليه صحيفتي؟ هل سيُعذب بسببي في قبره؟".

لم يحتمل عقلها وطأة السؤال، فهربت من الواقع.. سقطت مغشياً عليها، وانفصلت عن الحياة لساعة.. ساعة واحدة كانت فاصلاً زمنياً بين حياة وحياة، بين "أمال القديمة" و"أمال" التي ولدت من رحم الموت.

استيقظت في سريرها؛ لتجد طبيب العائلة، وصديق أبيها، وحو[له] أمها وإخوتها بأعين متورمة. عادت للوعي، لا لتنجو، بل لتستقبل مرارة اليتم، والندم دفعة واحدة.

مرَّت ليالي العزاء الثلاث، وهي شبه غائبة، سجينة غرفتها وسريرها، لا تنهض إلا لتومئ برأسها للمعزين الذين يقتحمون عزلتها للاطمئنان، وحين انفضَّ الجمع، وهدأ الصخب، بدأت أطياف أبيها تملأ أركان البيت الصامت.

انتفضت من فراشها، توضأت بماء بارد ليطفئ نار صدرها، ووقفت بين يديّ الله تصلّي ركعتين.. لم تقرأ فيهما بقدر ما بكت. سجدت طويلاً وهي تردد دعاءً واحداً:

" يا رب لا تحاسبه بذنبي.. يا رب هو بريء مني".

خرجت من صلاتها بقرار لا رجعة فيه. توجهت إلى غرفة أمها، فتحت الدولاب، وأخرجت عباءة سوداء فضفاضة، وخماراً طويلاً، ارتدتهما، ووقفت أمام المرآة.. لم تكن ترى ملابس، بل كانت ترى "كفناً" لذنوبها، ودرعاً تحتمي به.

أخذت عهداً قاطعاً أمام الله ،وأمام طيف أبيها: هذا الزي لن يفارق جسمها ما حييت.. لقد ماتت الفتاة التي كانت تركب السيارات الفارهة، ودُفنت مع أبيها في القبر نفسه.

ساد صمتٌ جنائزي في الغرفة الافتراضية بعدما ابتلع الحزن آخر كلمات "آمال"، كان صمتًا مختلفًا عن كلِّ مرة؛ لا أحد يجرؤ على الحكم، ولا أحد يملك شجاعة التعليق، حتى "رامي"، ذلك المتربص الدائم، بدا وكأنَّ قصة "الموت المفاجئ" قد ألجمت لسانه، ربما لأنَّ الموت هو الحقيقة الوحيدة التي لا تقبل السخرية.

لم يعقب وليد بكلمة واحدة على توبة "آمال"، أو قرارها المصيري، اكتفى بإيماءة رصينة، بينما كان عقله الطبي المشكك يعمل بأقصى طاقته في الاتجاه المعاكس.

كان السؤال يلحُّ عليه، يقرع جدران جمجمته كجرس إنذار:

"هل التغيير الناتج عن الصدمة حقيقي ومستدام؟ أو أنه مجرد (تخدير موضعي) للألم النفسي، سيزول حتماً بمجرد أن يبرد جرح الفقد، وتعود الحياة لروتينها؟".

سحب قلمه، ودوَّن في مفكرته بخط سريع وعصبي:

(آمال: حالة توبة انفعالية post-traumatic repentance التحدي الحقيقي ليس في اتخاذ القرار، بل في الصمود بعد زوال المؤثر. هل ستخلع الحجاب حين تنسى طعم الموت؟ سؤال للمستقبل).

أغلق القلم، ونفض عنه أفكاره التحليلية، ليعود لدوره مديرًا للجلسة .

وجَّه نظره نحو المربع التالي، حيث توجد "جنى".

"ممكن تحكيلنا إيه اللي حصل لحظة دخول دكتور سعيد؟".

بدأت جنى تتحدث بنبرة خافته، وكأنَّ الاسم وحده أعادها سنوات إلى الوراء.

تنهدت بعمق، وبدأت تسرد المشهد:

***

أومأ دكتور "سعيد" برأسه ردّاً على تحيتهم، ثم دخل في صلب الموضوع مباشرة بأسلوبه العمليِّ المقتضب:

"أنا الحمد لله.. بقولك يا هاني، في شركة كبيرة شغال معاهم استشاري، وكانوا طالبين مني أرشحلهم حدّ حديث التخرج، شاطر ومجتهد، عشان يشتغل في الـ(Team) بتاعي هناك".

التمعت عينا هاني للحظة، فهذه فرصة ذهبية لا تتكرر، أن يبدأ حياته المهنية تحت جناح دكتور بوزن سعيد، لكنَّ الواقع صدمه سريعاً:

"ده شرف كبير ليا يا دكتور والله، وأي حدّ يتمنى يشتغل مع حضرتك.. بس للأسف، أنا جيشي الشهر الجاي، وهقعد سنة".

مطَّ سعيد شفتيه بأسف مصطنع:

"يا خسارة.. كانوا محتاجين حدّ يبدأ فوراً".

ثم التفت فجأة بعينيه الحادتين نحو جنى، وكأنه يراها للمرة الأولى كـ "مشروع موظفة"، لا كطالبة:

"طب إيه رأيك يا جنى؟.. ظروفك إيه؟".

لم تتردد جنى لحظة واحدة، كانت الفرصة تبدو وكأنها هدية هبطت من السماء لتكمل فرحة هذا اليوم الاستثنائي، وظيفة مرموقة، مع دكتور معروف، وفي التوقيت المثالي.

ردَّت، وسرعة أنفاسها تفضح حماستها:

"أنا موافقة طبعاً يا دكتور".

أخرج سعيد من جيب سترته مفكَّرة صغيرة، وقلم حبر ثمين، كتب بضعة سطور، وعنواناً في ورقة صغيرة، وانتزعها بهدوء ليمدَّها إليها:

"تمام.. ده العنوان والتفاصيل، عدّي على الـ HR يوم الحد الجاي الساعة ٩ وقوليلهم إنك تبعي".

أخذت جنى الورقة، وكأنها وثيقة عبور لحياة جديدة. نظر إليهما سعيد نظرة أخيرة، ربما حملت شيئاً من الحسد الخفيِّ على بدايتهما الممتلئة بالأمل، ثم استأذن، ورحل بخطواته الثابتة، تاركاً خلفه رائحة عطر باهظ الثمن.

بعد رحيل دكتور سعيد، ساد بينهما صمت ثقيل، مغاير تماماً لصمت الألفة الذي كان قبل قليل. كان صمتاً مشحوناً بالأفكار المتضاربة.

ابتلع هاني غصة مريرة في حلقه؛ شعور غامض بالحزن، ربما هي غيرة مهنية مكتومة، أو ربما هو الخوف من أن تسرقها أضواء المدينة منه، لكنه، وبرجولة المحبِّ، حبس كلَّ هذا بداخله، ورسم على وجهه ابتسامة صادقة، وهو يقول:

"ألف مبروك يا جنى.. دي فرصة عظيمة بجد، متضيعيهاش".

واتفقا، قبل أن يفترقا، على لقاء أخير، موعد استثنائي، لأول مرة خارج أسوار الحرم الجامعي، في "ليلة رحيله" إلى معسكر التدريب، ليلة ستكون برزخاً بين حياتهم كطلاب، وحياتهم القادمة.

جاءت الليلة الموعودة، اختارا مكاناً هادئاً يطلُّ على النيل، بعيداً عن صخب المدينة، كانت الأجواء مشبعة بالشجن؛ أنوار المراكب البعيدة تنعكس على صفحة الماء كأحلامهم المبعثرة.

جلس هاني أمامها، وقد حلق شعره تماماً "على الزيرو" استعداداً للميري، فبدا أصغر سناً، وأكثر انكشافاً.

كانت عيناه تلمعان ببريق الوداع، وهو يدرك أنَّ هذا اللقاء هو "زاد" سيعيش عليه لمدة ستين يوماً كاملة.. شهران من الانقطاع التام، لا رسائل، لا رؤية.

تحدَّثا كثيراً في تلك الليلة، حديثاً خلا من المجاملات، تحدَّثا عن المخاوف، وعن الوعود.

أمسك هاني يدها لأول مرة، ضغطة خفيفة، مترددة، لكنها تحمل كلَّ معاني الرجاء:

"ستين يوم يا جنى.. مش هعرف أشوفك فيهم، خلي بالك من نفسك، وركزي في شغلك.. وأنا هعدّ الأيام يوم بيوم لحد ما أشوفك تاني".

نظرت جنى في عينيه، وشعرت بمسؤولية هذا الحبِّ الذي ولد في الوقت الضائع:

"وأنت كمان خلي بالك من نفسك.. الستين يوم هيعدوا بسرعة، المهم إننا عارفين مستنيين إيه في الآخر".

انتهى اللقاء، وافترقا على وعد بلقاء عند أول إجازة.

سار كلٌّ منهما في طريق؛ هاني نحو "المجهول" في الصحراء، وجنى نحو "المعلوم" في شركة دكتور سعيد، وكلاهما لا يدري ما تخبئه له الستون يوماً القادمة.

***

تدخَّل وليد بصوته الرزين، ليوجِّه الدَّفة نحو المنطقة الشائكة، فقد أدرك بحدسه المهنيّ أنَّ الستين يوماً لم تكن مجرد فترة انتظار، بل كانت "فترة حضانة" للكارثة.

حرَّك المؤشر نحو المربع الذي اعتاد أن يخرج منه صوت متهكِّم أو هجومي.

"رامي.. الدور عندك، الميكروفون معاك ".

توقَّع وليد سخرية معتادة، أو تعليقاً لاذعاً على "دراما النساء" كما يسميها رامي، لكنَّ ما حدث كان مختلفاً.

جاء صوت رامي عبر السماعات أهدأ من عادته، خالياً من نبرة الاستعلاء، وكأنه يتحدث من بئر عميقة من التفكير:

"أنا مش هقدر أتكلم دلوقتي يا دكتور.. مش هقدر أرغي في مشاكلي ولا أحكي عن نفسي، والراجل ده مختفي، إحنا لازم نطمن على عبد المجيد الأول".

نزلت الكلمات على مسامع وليد كوقع السوط، كان في جملة رامي إهانة مبطَّنة، لمسة عتاب حادة وكأنه يقول له: "كيف تستمرُّ في عملك ببرود، بينما أحدنا قد يكون ميتاً؟ ".

شعر وليد بوخزة في كبريائه المهنيَّة، وهمَّ بأن يدافع عن نفسه، أو ينهي الجلسة بصرامة إدارية.

لكن.. سرعان ما تلاشت الغضبة، وحلَّ مكانها شعور دافئ ومفاجئ بالرضا.

ابتسم وليد في الظلام، ابتسامة لم يرها أحد.

هل يعقل؟ رامي.. النرجسي، المتعالي، الذي يرى البشر مجرد أدوات، يشعر الآن بالقلق تجاه "عبد المجيد"؟ ذلك العجوز الذي لم يجمعه به سوى بضع ساعات افتراضية؟

هل بدأ الجليد يذوب؟ هل بدأت "المسؤولية الإنسانية" تتسرب إلى قلب رامي القاسي؟

أدرك وليد أنَّ هذا الموقف أهم من أيِّ "حكي" قد يقوله رامي الليلة. لقد حققت الجلسة هدفاً غير مُعلن.

ضغط وليد زرَّ الحديث، وقال بنبرة تحمل تقديراً خفيًّا:

"عندك حق يا رامي.. القلق مشروع، واحترامك لغيابه واصلني، أنا بوعدكم إني هعمل كل المحاولات عشان أوصله قبل المرة الجاية".

سحب نفساً عميقاً من سيجارته، ثم أعلن القرار الحاسم:

"الجلسة انتهت.. تصبحوا على خير، أو على أمل".

أغلق وليد الاجتماع. تحولت الشاشة أمامه إلى السواد التام، لكنَّ عقله كان يضيء بألف سؤال، وأهمها: أين عبد المجيد؟

كان وليد يجلس خلف مكتبه، وعيناه مثبتتان على الفراغ، بينما فنجان القهوة أمامه قد برد تماماً. آثار الأرق واضحة تحت عينيه، وكأنه لم يغادر هذا الكرسي منذ الليلة الماضية.

طُرق الباب طرقتين وقورتين، ودخل دكتور "شريف".

لم يكن شريف مجرد زميل، بل كان أستاذه في الجامعة، ورئيس القسم الذي تدرَّب على يديه لسنوات.

هبَّ وليد واقفاً باحترام بمجرد رؤيته، وحاول رسم ابتسامة مرهقة على وجهه.

"صباح الخير يا دكتور شريف.. اتفضل".

أشار إليه شريف بيده أن يجلس، وجلس هو في المقعد المقابل بهدوء الواثق، وضع ملفاً ورقيّاً كان بيده على المكتب، وقال بنبرة هادئة، لكنها فاحصة:

"صباح الخير يا وليد، قريت تقرير المتابعة اللي بعتهولي الفجر، بصراحة.. (التوليفة) اللي أنت مجمعها في الجروب ده مدهشة، أنت حاطط أنماط شخصية صعبة جداً في مكان واحد.. نرجسي، مع شخصية حدية، مع حدّ منطوي.. دي مخاطرة كبيرة يا بطل".

جلس وليد، وشبك أصابعه بتوتر:

"عارف يا دكتور.. وعشان كده أنا قلقان، حاسس إن الخيوط ممكن تهرب مني، والمشروع يفشل قبل ما نوصل لأي نتيجة".

قطَّب شريف حاجبيه قليلاً، ونظر إلى وليد نظرة الخبير:

"ليه بتقول كده؟ التقارير بتقول إن التفاعل ماشي بشكل متصاعد، وفيه مكاشفة بتحصل. إيه اللي جد؟".

تنهَّد وليد بضيق:

"عبد المجيد.. الراجل الكبير اللي حكيت لحضرتك عنه، إمبارح في الجلسة التالتة مجاش، اختفى تماماً من غير أي اعتذار".

ردَّ شريف بهدوء، محاولاً تخفيف توتر تلميذه:

"وارد جداً يا وليد، في العلاج الجماعي ده بيحصل كتير. المريض بيحس إن الضغط النفسي زاد، أو إنه اتكشف زيادة عن اللزوم، فبياخد خطوة لورا.. (مقاومة) عادية".

هزَّ وليد رأسه نافياً:

"لا يا دكتور، إحساسي بيقول غير كده، الراجل ده مكنش بيقاوم، بالعكس، ده كان مستسلم تماماً، آخر مرة كلامه كان كله عن الوحدة، وعن خوفه إنه يموت، ومحدش يحس بيه.

غيابه ده مش انسحاب نفسي.. أنا خايف يكون حصله حاجة بجد وهو لوحده".

صمت شريف للحظات، يقرأ تعبيرات وجه وليد بعمق، ثم سأله السؤال الأهم، بنبرة الأستاذ الذي يختبر نضج تلميذه:

"وليد.. ركّز في سؤالي، أنت قلقان عشان (الداتا) بتاعتك هتنقص والبحث يبوظ؟ ولا قلقان على الراجل نفسه كإنسان؟."

نظر وليد إلى أستاذه، وتردد للحظة قبل أن يجيب بصدق تجرد فيه من قناع الطبيب الجامد:

"بصراحة يا دكتور؟.. الاتنين. خايف مشروعي يفشل، بس المرعب بالنسبة لي أكتر إن الراجل ده يكون مرمي في شقته تعبان، أو حصله مكروه، ومحدش دريان بيه.. واحنا هنا بنكمل حكاياتنا عادي".

ابتسم شريف ابتسامة خفيفة، وأومأ برأسه علامة الرضا:

"كويس إنك صادق مع نفسك، دي المنطقة الصعبة في شغلانتنا يا وليد، الشعرة بين (المهنية) وبين (الإنسانية)، لو مالت ناحية المهنية أوي بنبقى مجرد آلات بنسجل أعراض، ولو مالت ناحية العاطفة حكمنا بيتشوش".

اعتدل شريف في جلسته، وتحولت نبرته إلى العملية الصارمة:

"طيب.. سيبنا من التحليل دلوقتي وخلينا في الواقع، الراجل ده عايش لوحده زي ما بتقول، وسنه كبير، يعني احتمال حدوث أزمة صحية مفاجئة وارد جداً، أخلاقياً، احنا مسؤوليتنا مش بس جوه الجلسة".

سأله وليد بلهفة:

"يعني حضرتك شايف إيه؟ أعمل إيه من غير ما أكسر قواعد الخصوصية اللي اتفقنا عليها؟".

أجاب شريف بحسم:

"في الحالات الطارئة، أو لما يكون فيه شكّ في خطر على حياة المريض، الخصوصية بتيجي في المرتبة التانية، أنت معاك أي بيانات ليه؟ عنوان؟ رقم تليفون؟".

"للأسف يا دكتور، التواصل كان إيميل بس".

"كده الطريق مسدود يا وليد، الإيميل لوحده ميوصلش لحاجة، ولو بعتله ومردش مش هتعرف هو مبيفتحش، ولا فيه حاجة حصلت".

نظر وليد إلى أستاذه بعينين تستجديان حلًّا، لكن شريف واجهه بالحقيقة المجردة:

"للأسف، إحنا مكتفين، مفيش في إيدك أي حاجة تعملها غير إنك تبعت إيميل.. وتستنى".

(الجلسة الرابعة)

جلس وليد أمام شاشته قبل الموعد المحدد بعشر دقائق، يحدّق إلى صندوق الوارد ببريده الإلكتروني. ضغط على زر تحديث (Refresh) للمرة العشرين، لكنَّ النتيجة كانت واحدة: لا رسائل جديدة، الرسالة التي أرسلها لعبد المجيد بعنوان "نحن قلقون عليك" ظلت معلّقة في الفراغ الرقمي بلا ردٍّ.

شعر بمرارة العجز تتسرَّب إلى حلقه. نصيحة دكتور شريف كانت واقعية، طبية، لكنها قاسية للغاية: "إحنا مكتفين.. مفيش في إيدك حاجة".

أشعل سيجارة بعصبية، ونفث الدخان نحو الشاشة، وكأنه يحاول طمس الحقيقة.

دقت الساعة الثامنة.

بدأت المربعات السوداء تضاء تباعاً، لكنَّ الليلة كانت تحمل طابعاً مختلفاً، طابع "غرفة الطوارئ".

ظهرت "ليلى "لكنها لم تكن ليلى التي يعرفونها، اختفت الألوان الصارخة، واختفت تسريحة الشعر المتمردة .

كانت تجلس منكمشة، ضامة ذراعيها حول جسمها بقوة، وكأنها "مكتفة" بأحبال غير مرئية، تحاول حماية ما تبقّى منها .

وجهها خالٍ من المساحيق، شاحب كالموتى، وفي أعلى جبهتها، يمتدُّ جرح طولي كبير، مخيط بغرز سوداء خشنة بدت واضحة ومؤلمة تحت إضاءة الغرفة الخافتة.

شهق وليد داخلياً، لكنه حافظ على ثباته المهني، وسأل بصوت هادئ، مشوب بالقلق:

"ليلى.. سلامتك.. إيه اللي حصل؟ أنتي بخير؟".

رفعت عينيها ببطء، نظرة منكسرة، وخالية من الحياة، وردت بصوت مقتضب:

"أنا بخير يا دكتور.. حادثة بسيطة".

لم يصدِّقها أحد، الجرح مكانه، وشكله لا يوحي بحادث طريق، بل بعنف متعمد. لكنَّ وليد، احتراماً لرغبتها في الصمت الآن، آثر ألا يضغط عليها، وقرر تأجيل فتح هذا الجرح النفسي والجسدي لوقت لاحق.

"ألف سلامة عليكي.. خدي وقتك".

ساد صمت ثقيل، خانق.

لم يكن صمت التأمل، أصبح محور الجلسة كله يدور حول "الغياب". هل مات وحيداً؟ هل كان وداعه في المرة السابقة هو رسالة

انتحار مبطنة؟ تحولت الغرفة إلى سرادق عزاء افتراضي، والكلُّ يشعر بالذنب لأنهم لم يفعلوا شيئاً.

كان وليد على وشك النطق بعبارات المواساة التقليدية، وإنهاء حالة الانتظار، حين حدثت المعجزة الصغيرة.

صوت "رنين" مميز.. إشعار بدخول عضو جديد للاجتماع.

تجمَّدت الأنفاس، اتجهت كلُّ الأنظار نحو الزاوية السفلى من الشاشة.

أضاء المربع الأسود، وظهر "عبد المجيد".

لم يكن الرجل نفسه الذي عهدوه، كان وجهه شاحباً لدرجة الصفرة، وعيناه غائرتان، محاطتان بهالات سوداء عميقة، وشفتاه جافتان، ومتشققتان، كان يرتدي "بيجاما" قديمة، وخلفه ظهرت تفاصيل غرفة مستشفى، أو ربما غرفة نوم تحولت إلى غرفة عناية، حيث كان هناك محلول معلَّق يظهر طرفه في الكادر.

ساد صمت الذهول للحظات، قبل أن ينطق وليد، وقد غلبت إنسانيته مهنيته، فزفر بارتياح عميق:

"أستاذ عبد المجيد!.. حمد الله على السلامة.. قلقتنا عليك جداً".

حاول عبد المجيد أن يبتسم، لكنَّ الابتسامة خرجت واهنة، مؤلمة، وقال بصوت ضعيف، يخرج بصعوبة من صدره المنهك:

"أنا آسف يا دكتور.. آسف يا ولادي.. مكنتش أقصد أقلقكم.. بس الجسم.. الجسم خذلني المرة دي".

سعل "عبد المجيد" سعلة جافة، مؤلمة، وضع يده بعدها على صدره بحذر شديد، وكأنه يحمي شيئاً هشّاً تحت ملابسه، ثم بدأ يحكي بصوت متهدِّج، يقطعه التقاط أنفاسه بصعوبة:

"كنت بجهز فطار القطة زي ما حكيتلكم.. فجأة حسيت بنار.. سكين بارد انغرس في نص صدري، والدنيا لفت بيا.. ومحستش بحاجة بعدها غير إني واقع على سجادة الصالة، وشريط حياتي بيعدي قدام عيني".

صمت لحظة، ليرطِّب حلقه الجاف برشفة ماء صغيرة، وتابع، والجميع يحبسون أنفاسهم:

"معرفش فضلت مرمي قد إيه.. ساعة.. اتنين.. يوم؟.. الوقت كان ميت زيي.. بس ربنا كريم، وكرمه واسع أوي يا ولادي. أنا ليا صديق عمر، عنده ابن في كلية طب، ولد بار ومحترم، متعود يعدي عليا كل فترة يقيس لي الضغط، والسكر، ويطمن على علاج القلب".

ابتسم عبد المجيد ابتسامة واهنة، وهو يسترجع لحظة النجاة:

"الولد خبط كتير، ومحدش ردّ.. قلق، لأن دي مش عادتي.

نده الجيران، وكسروا باب الشقة.. لقوني مرمي ونفسي بيطلع".

تنهَّد بعمق، وأشار بيده المرتعشة نحو صدره:

"نقلوني المستشفى جري.. الدكاترة قالوا لازم عملية فوراً.. (قلب مفتوح).. فتحوا صدري يا دكتور وليد، وغيروا شرايين كانت سادة طريق الحياة".

ثم ضحك ضحكة خفيفة، فيها رضا عجيب، وقال ببساطة تخلع القلوب: "بس الحمد لله.. جت بسيطة، ربنا كاتبلي عمر جديد عشان أشوفكم تاني."

عمَّ الصمت أرجاء الغرفة الافتراضية، كانت كلمات "بسيطة" التي نطقها عن عملية خطيرة كهذه، تصفع وجوههم جميعاً.

هذا الرجل الذي كان يواجه الموت وحيداً، يرى النجاة "بسيطة"، ويرى لطف الله في كسر الباب.

تنفَّس وليد الصعداء، وشعر بحِمل جبل ينزاح عن كاهله، وقال بصوت دافئ:

"حمد الله على سلامتك يا أستاذ عبد المجيد.. ربنا نجاك عشان لسه ليك دور في الدنيا دي، وعشان قلوبنا اللي كانت بتدعيلك".

لاحظ وليد أنَّ أنفاس "عبد المجيد" بدأت تتسارع، وأنَّ التعب قد نال منه بعد الانفعال، وسرد قصته، فخشي عليه من أي مضاعفات، وهو لا يزال في فترة النقاهة.

تدخَّل وليد بصوت أبوي حنون، قاطعاً حالة الصمت:

"أستاذ عبد المجيد.. وجودك معانا النهاردة معجزة، وكرم من ربنا، بس صحتك أهم من أي حاجة، أنا بطلب منك دلوقتي تقفل الكاميرا، وتريح ضهرك تماماً. لو حابب تفضل سامعنا خليك، ولو حابب تخرج ترتاح مفيش أي مشكلة، المهم متضغطش على نفسك".

أومأ عبد المجيد برأسه موافقاً بامتنان، وقال بصوت خافت:

"هفضل سامعكم يا دكتور.. صوتكم بيونسني".

انطفأ مربع عبد المجيد ليعود للسواد مرة أخرى، لكنه هذه المرة سواد مطمئن، يعلم الجميع أنَّ خلفه قلباً ينبض بالحياة.

تنهَّد وليد، ثم أدار كرسيه ليواجه الشاشة بتركيز كامل، ثم طلب من ريم أن تتحدث.

***

اليوم تطوي قصة "ريم" وحبيبها عامها الخامس.. خمس سنوات من الوعود والأحلام والمكافحة.

قررت ريم أن تكسر روتين الانتظار بمفاجأة، فاتصلت به وطلبت منه اللقاء في "حديقة الفنون"؛ ذلك المكان الذي يحمل "إرثاً تاريخياً" لعلاقتهما، حيث شجيرات الورد، والمقاعد الخشبية تحفظ همساتهما الأولى.

جلست ريم أمام طاولة خشبية هادئة، تداعب بأصابعها شريط حقيبة الهدايا الأنيقة، وعقلها يسافر نحو المستقبل المجهول. لكنها سرعان ما نفضت رأسها بقوة، تطرد جيوش الأفكار السوداء والضغوطات:

"الليلة لنا فقط.. الليلة هدنة من الحرب، لا تفكير، لا مشاكل، فقط حب".

طال انتظارها قليلاً، فالعمل لا يرحم، لكنه أخيراً وصل.

ما إن لاح طيفه من بعيد حتى شعرت ريم بانقباضة خفيفة في قلبها، لقد تغيَّر كثيراً عن آخر لقاء جمعهما قبل ستة أشهر.

بدا وكأنَّ السنوات مرَّت عليه أضعافاً؛ جسمه نحُل نحولًا ملحوظًا، لحيته نمت بإهمال ينمُّ عن انشغال دائم، وغزا الشيب شعره الأسود مبكراً رغم حداثة سنِّه، سارقاً منه ملامح الشباب.

كان يقف أمامها "مستهلكاً" من فرط الركض خلف لقمة العيش.

على النقيض تماماً، كانت ريم في أوج تفتحها. بعد التخرج والعمل، زادها النضج جمالاً، وأصبحت تعتني بأناقتها وتفاصيل زينتها، فبدت كزهرة يانعة أمام غصن جاف.

لكن، ما إن اقترب، حتى تلاشت كلُّ هذه الفوارق، لم ترَ ريم الشيب ولا التعب، بل رأت "الملاذ"، ما زالت عيناه هما مصدر أمانها الوحيد في هذا العالم.

نظر إليها تلك النظرة العميقة التي تجيد قراءتها؛ نظرة تخبرها بكلٍّ ما يعجز لسانه عن قوله، نظرة اعتذار وحبٍّ وشوق.

مدَّ يده لمصافحتها، وتلامست الكفوف..

لم تكن مجرد مصافحة، كانت سريان كهرباء الحنين في العروق، كانت لمسة يده بمنزلة "عناق طويل" يعوِّض برودة ستة أشهر من البعد، ويختصر مسافات الوجع بلمسة دافئة واحدة.

أزاح عن كاهله حقيبة ظهره الثقيلة، وضعها على الكرسي المجاور، وجلس أمامها وكأنه يلقي بأحمال الدنيا كلها ليرتاح في حضرتها. تلاقت الأرواح قبل الأعين، وعاد السؤال الأزلي يطارد عقل ريم: كيف يظلُّ هو "الاستثناء" الوحيد؟ كيف يظلُّ شغفها به متقداً رغم قلة اللقاءات، وشح الإمكانات، بينما يملأ حياتها عشرات الرجال الأنسب والأغنى؟

أخرجت ريم "كشكولاً" قديماً، تفوح منه رائحة ورق المحاضرات والذكريات.

"ده كشكول محاضرات سنة تالتة.. كاتبة فيه كلّ حاجة بالتفصيل عشانك".

ابتسم بامتنان حقيقي، وتحسس الغلاف كأنه يلمس كنزاً:

"لولا كشكولك ده، السنة اللي فاتت، مكنتش عديت ولا نجحت".

ردَّت بعفوية محبة:

"وأنت لولا وجودك جنبي.. مكنتش عشت أصلاً".

شعر بالحرج من فرط مشاعرها التي لا يملك ثمنها، فأرادت ريم أن تكسر حاجز الصمت بسرعة.

مدَّت يدها بالحقيبة الأخرى.. الحقيبة "المفاجأة".

"كلّ سنة وإحنا مع بعض يا حبيبي".

"يارب.. يارب يا حبيبتي".

"افتحها".

ما إن فتح العلبة الأنيقة حتى اختفت الابتسامة، لمعان الهاتف الحديث تحت أضواء الحديقة كان كافياً ليشعره بصغر حجمه. تبدَّلت ملامحه من الفرح إلى مزيج من الغضب المكتوم، والحزن العميق. أغلق العلبة ودفعها نحوها برفق:

"أنا آسف يا ريم.. مش هقدر أقبل التليفون ده".

"ليه بس؟ ده عشانك!".

قالها، ونبرة صوته مكسورة:

"عشان مش هقدر أجيبلك هدية بنفس التمن.. مش هقدر أردها".

"ومين قالك إني عايزة هدية؟ أنت هديتي.. خدها بالله عليك

ومنكسرش بخاطري".

أمام إلحاحها، وخوفاً من أن يفسد الليلة، قبل الهدية على مضض، كمن يتجرع دواءً مراً، وحين سألته عيناها عن هديته، هربت منه كذبة بيضاء ليستر بها عار فقره:

"هديتك.. نسيتها في البيت عشان كنت جاي من الشغل ومستعجل.. المرة الجاية هجيبها معايا أكيد".

انتهت الليلة. أوقف لها "تاكسي" لتعود معززة مكرَّمة، بينما سار هو وحيداً مسافة طويلة حتى وصل إلى "قصر العيني". هناك، حشر جسمه النحيل داخل "ميكروباص" مزدحم.

وسط ضجيج الركاب، فتح حقيبة ظهره ببطء..

في قاع الحقيبة، كانت ترقد علبة متواضعة، بداخلها "ساعة حريمي تقليد" (هاي كوبي).. تلك التي ادَّخر ثمنها لأشهر ليقدِّمها لها اليوم.

نظر إلى الساعة الرخيصة، ثم تذكَّر الهاتف الباهظ الذي يقبع الآن في جيبه.. شعر بمرارة في حلقه.

أغلق العلبة، وهو يقرر مصيرها بأسى في يد إحدى أخواته.

ما إن أدارت ريم المفتاح، وفتحت باب الشقة، حتى تلاشت الابتسامة التي كانت ترسمها طوال الطريق، لم يكن المنزل ساكناً كما

توقعت، بل كانت والدتها تجلس في صدر الصالة، بوضعية "المحقق" الذي يتربَّص بالمتهم، وعيناها تقدحان شرراً.

أدركت ريم الورطة؛ اليوم "جمعة"، عطلة رسمية، وهي خارجة بكامل زينتها وأناقتها.. الحجج التقليدية عن العمل أو المحاضرات لن تجدي نفعاً اليوم.

بادرتها الأمُّ بصوت حادٍّ كالسيف:

"وبعدهالك يا ريم؟".

حاولت ريم التصنُّع بالبراءة:

"في إيه يا ماما؟".

"في الوهم اللي أنتي عايشة فيه.. هتفضلي عايشة في الوهم ده لحد إمتى؟ سنين بتجري وأنتي واقفة مكانك".

حاولت ريم الدفاع عن حصنها المهدد:

"يا ماما.. أرجوكي".

لكنَّ الأمَّ قاطعتها بحزم لا يقبل النقاش، وهي تلوِّح بيدها كأنها تغلق باباً إلى الأبد:

"الموضوع ده مقفول، وأنا اللي هقفله بنفسي، أنا سيباكي بمزاجي بقالي كام سنة، قولت يمكن يعقل، يمكن حاله ينصلح.. لكن مفيش

جديد، ومش هيبقى في جديد، ده طريق مسدود يا بنتي".

قالتها الأمُّ، وأعطتها ظهرها، ودخلت غرفتها، تاركة ريم خلفها جثة هامدة بلا حراك.

كانت الكلمات بمنزلة رصاصة قنَّاص محترف.. أصابت ريم وهي تحلِّق في أعلى درجات النشوة والسعادة، فأسقطتها من سابع سماء لترتطم بأرض الواقع الصلبة.

وقفت مكانها غارقة في دموعها، كطائر مكسور الجناح، لا يملك القوة للطيران، ولا القدرة على الزحف.

***

قال وليد بصوت هادئ، ومُواسٍ:

"حاسس بيكي يا ريم.. وبكل كلمة قولتيها، الصراع بين اللي القلب عايزه وبين اللي الواقع بيفرضه علينا، ده واحد من أقسى الاختبارات اللي ممكن نمر بيها. دموعك دي مش بس عشان كلام والدتك، دي دموع خمس سنين بتشيلي فيهم حمل تقيل لوحدك، وبتحاولي تجمّلي واقع صعب".

صمت وليد قليلاً ليعطيها مساحة لتلتقط أنفاسها، وتكفكف دموعها، ثم قال: "مش هنضغط عليكي أكتر من كده دلوقتي."

ثم حرك نظره نحو المربع التالي في الترتيب، وقال:

"يحيى.. دورك، الميكروفون معاك".

لم تكن مجرد أمٍّ، كانت "الجيش" و"الحصن" و"الوطن".

بعد الطلاق، رفضت الهزيمة، وقررت أن تخوض معركة الحياة وحدها. نزلت إلى سوق العمل، شقيت، وحرمت نفسها من كلِّ متع الدنيا لتصنع منه رجلاً. أدخلته أحسن المدارس، ووقفت خلفه كالظلِّ حتى تخرَّج في الجامعة، وحقق حلمها الأبدي: "ابني المهندس".

مرَّت السنوات سريعة، وهادئة، وقاسية.

ها هو الآن يقف على مشارف السابعة والثلاثين من عمره. مهندس مرموق، ناجح في عمله، لكنه يعود كلَّ مساء إلى بيت هادئ، لا يسكنه سوى هو وأمه، بلا حبٍّ، بلا زواج، وبلا أنثى تكسر حدة الوحدة.

كان يعيش في صراع داخلي صامت، ينهش روحه ببطء.

كان يحدِّث نفسه في ليالي الأرق:

"أليس من العدل أن أغلق حياتي عليها كما أغلقت حياتها عليَّ طوال عمرها؟ هي ضحَّت بالكلِّ لأجلي، فهل أبخل عليها بالجزء؟".

كان يرى في بقائه عازباً نوعاً من "ردِّ الجميل"، أو ربما نوعاً من "الوفاء المتطرف".

لكنَّ الأصوات من حوله لم ترحم هذا الصمت.

كانت "جدته" و"خالته" لا تكفَّان عن الزنِّ والضغط:

"إمتى هنفرح بيك؟ العمر بيجري".

"عايزين نشوف عيالك قبل ما نموت".

وفي وسط هذه العاصفة، كانت "الأمُّ" تلتزم الصمت، أو تبتسم ابتسامة باهتة وتقول: "النصيب".

لكنَّ الحقيقة التي كان يلمحها الابن في عينيها كانت مرعبة. كانت رغبة دفينة، مظلمة، في ألا يقتسمه أحد معها، كانت ترى في "زوجة الابن" عدوّاً قادماً ليسرق حصاد عمرها.

أي امرأة ستدخل هذا البيت لن تكون شريكة حياة لابنها، بل ستكون "إعلان هزيمة" لها.. وهزيمة هذه المرأة بعد كلِّ هذا الشقاء، تعني نهايتها.

لم تتوقف "الخالة" عن محاولاتها، فكانت تجلب العرائس واحدة تلو الأخرى، وكأنها تعرض بضائع في سوق كاسدة، لكنَّ النتيجة كانت دائماً واحدة: "الرفض".

تارة يرفضهن يحيى لعدم القبول، وتارة يرفضن هنَّ لغموض شخصيته، وفي أغلب الأحيان يأتي الرفض -المبطن أو الصريح- من "الأم".

لم تكن مجرد شريكة في الرأي، بل كانت هي "صاحبة القرار" وواضعة المعايير التي يستحيل على أيِّ فتاة تحقيقها.

وسط هذا الجمود، حدثت المعجزة مرة واحدة.

في إحدى جلسات التعارف، انفتح قلب يحيى لفتاة هادئة الملامح لأول مرة، شعر بوميض باهت في روحه، شعر أنها قد تكون "الزوجة" السكن، والشريك.

تطوَّر الأمر بسرعة غير معتادة، وانتقلا من التعارف المبدئي إلى "الجلسة العائلية" الرسمية لإتمام الاتفاق.

كانت الجلسة تسير بهدوء حذر، حتى ألقى والد العروس سؤاله العابر الذي نزل كالصاعقة:

"أمال فين الوالد؟ مش شايفه يعني".

قبل أن ينطق يحيى بكلمة، انبرت أمُّه للردِّ بصدر مفتوح، ونبرة تحمل كلَّ كبرياء السنين:

"والده، انفصلنا من زمان جداً.. أنا اللي ربيت، وأنا اللي علِّمت، وأنا اللي كبَّرت لحد ما بقى المهندس يحيى اللي قدامك ده".

تغيَّرت ملامح والد العروس، واختفت الابتسامة المجاملة لتحلَّ محلَّها تكشيرة الأصول الجامدة. اعتدل في جلسته، ونظر إلى يحيى نظرة خالية من التقدير، ثم وجَّه كلامه إلى الأم ببرود قاطع:

"على عيني، وعلى راسي يا ست الكل.. بس (الأصول) بتقول إن قراية الفاتحة، والاتفاقات دي شغل رجالة، لازم أبوه يكون موجود،

إحنا مش هندي بنتنا ونتفق مع ست".

حاولت الخالة تدارك الموقف، وحاول يحيى أن يتكلم، لكنَّ الحكم كان قد صدر.

انتهت الجلسة نهاية مأساوية. خرجوا من البيت مطرودين بسياط "الأعراف".

وهم يغادرون، التقطت أذنا يحيى همسات مسمومة تبادلتها نساء عائلة العروس، وعبارة قيلت بصوت خفيض، لكنه سمعه بوضوح جارح:

"الحمد لله إنها ما تمّت.. ده باين عليه (ابن أمه) وموش كلمة".

عاد يحيى إلى بيته تلك الليلة، وقد خسر العروس، وخسر كرامته، وتأكد له أنَّ تضحية أمه العظيمة قد تحوَّلت في نظر المجتمع إلى "وصمة" تلاحق رجولته.

تحوَّل الأمر إلى "ماراثون" مهين، تكالبت نساء العائلة، في سباق محموم لإيجاد "العروس المناسبة."

خلال عام واحد، جلس يحيى أمام ما يقارب خمسين فتاة. خمسون وجهاً، خمسون كوباً من الشاي، وخمسون قصة انتهت بكلمة واحدة: "الرفض".

لم يستطع يحيى، المهندس الذي اعتاد أن تُحَلّ أعقد المشكلات الهندسية بلمسة من يده، أن يتحمَّل هذا الفشل المتكرر في أبسط معادلات الحياة، شعر بأنه يُعرض كسلعة كاسدة في سوق لا يرحم.

بصوت منهك، وروح مستهلكة، قال لأمه جملة واحدة:

"كفاية يا أمي.. لو سمحتي، اقفلي الموضوع ده تماماً".

نظرت الأم إلى انكسار ابنها، وفاضت مشاعر الشفقة في قلبها وتغلَّبت على مخاوفها. كانت تخفي ورقة أخيرة، "كارت رابح" لم تكن تريد استخدامه حفاظاً على صداقة عمرها مع جارتها، خشية أن تفسد علاقة النسب ما بنَته السنون من ودٍّ، لكنَّ وجع ابنها كان أقوى.

قالت بتردد، وهي تخفض صوتها:

"طيب.. إيه رأيك في بنت طنط نبيلة؟".

عقدت الدهشة لسان يحيى. "بنت طنط نبيلة"؟ جارتهم؟ كيف لم تخطر بباله من قبل؟

هو يعرفها، ويعرف أخاها جيداً، فهو صاحبه وزميل طفولته، لكن لسنوات طويلة، كان يحيى يمرُّ بجوارها على السلم، أو يلمحها في الشرفة، فيغضُّ بصره فوراً، ويشيح بوجهه احتراماً لـ "حرمة الجيرة"، وتقديراً لصديقه، كانت بالنسبة إليه "منطقة محرَّمة" لا يجرؤ حتى خياله على اقتحامها.

لكن، ما إن نطقت أمه بالاسم، حتى سقطت الحواجز النفسية فجأة.

تحوَّلت الفتاة في ثانية واحدة من "أخت الصديق المحرَّمة" إلى "المتسابقة الجديدة".

بدأ خياله يرسم ملامحها التي كان يتجاهلها عمداً، لم يرها كحبيبة، بل رآها كـ "مشروع".

تخيَّلها وهي تقف في خطِّ النهاية لهذا السباق الطويل؛ إما أن تكون هي "الفائزة" التي ستنال شرف الزواج من "يحيى المهندس المثالي"، وإما أن تكون مجرد رقم جديد يضاف لقائمة الخاسرات.

***

نظر وليد إلى الشاشة أمامه، المربعات كلها سوداء، أسماء بلا وجوه، أصوات تخرج من الظلام، فقط مربع واحد بجانبه كان مضاءً.. مربع "ليلى".

كانت تجلس واجمة، وتعبث بخيط الغرز في جبهتها بشرود.

قال وليد بهدوء:

"ليلى.. أنتي سمعتي (ريم) وسمعتي (يحيى).. الميكروفون معاكي".

***

كان له أسلوبه الخاص، شيفرة سرية اخترق بها حصونها.. وقعت ليلى في الفخّ، أو لنقل في "المستنقع الوردي".

أصبح الأمر "ذنباً روتينياً"، طقساً يومياً يمارس في الخفاء، متعة لحظية لا تقاوم، تتبعها نوبات صمت.

الظروف كانت "الشريك الثالث" في الجريمة. في هذا المناخ، بدأ "ترمومتر الذنب" يهبط تدريجيّاً، حتى وصل إلى الصفر.. تبلدت المشاعر، وأصبحت الخطيئة مجرد عادة.

ثم جاءت الجامعة..

انغمست ليلى في أضواء كلية الإعلام، وفي ضجيج المحاضرات والوجوه الجديدة، هنا، ولأول مرة منذ شهور، امتلأ "الفراغ" بشيء حقيقي.

انتهت "لذة البدايات" المحرَّمة، وبدأت تستعيد بصرها.

مع كلّ صباح تذهب فيه إلى الجامعة، كانت ترى شباباً وبنات يتعاملون بطريقة طبيعيَّة، فبدأ "الذنب" يعود.. ولكن هذه المرة عاد شرساً.

أدركت فجأة أنَّ ما تفعله في ظلام غرفتها ليس حبًّا، بل هو قيد.. وأنَّ "الشات" الذي كان مهربها، أصبح سجناً تريد الفرار منه. كلما حاولت الإفاقة، كان يُخدِّرها بجرعات مكثفة من الكلام المعسول..

وعود متكررة، وأمل زائف، وأحاديث عن "عش الزوجية" وحياة خيالية يعلم هو -قبلها- أنها لن تحدث. كان يبيعها الوهم، وكانت تشتري منه الوقت.

جلست "ليلى" على إحدى درجات سلم الكلية، شاردة الذهن، تراقب مشهداً عاديّاً لكنه مزَّق قلبها: فتاة تضحك، وهي تسير بصحبة أبيها الذي يحمل عنها حقيبتها.

تمنَّت لو كانت مكانها.. لكنَّ "الذنب" كان يقف حائلاً.

شعرت أنَّ ما تفعله في الخفاء من خطايا لا يؤهلها للحصول على "أب" مثل هذا.. وكأنَّ جفاء أبيها، وقسوته هما عقاب إلهي معجَّل، ودفع مسبق لثمن أخطائها.

قاطع جلدَها لذاتها صوت مألوف، ومرح:

"إيه مقعدك كده؟ شايلة الهم ليه؟".

رفعت رأسها، لتجد "محمد"، ابن عمتها.

كان محمد في عمر ليلى نفسه تقريباً، رفيق الطفولة، وشريك الشقاوة حتى سنِّ الثانية عشرة، حين افترقت اهتماماتهما، وبنى كلٌّ منهما عالمه الخاص.

محمد يسبقها دراسيّاً بسنة، لكنَّ القدر -متمثلاً في وفاة جدته التي ربَّته- أوقفه قليلاً في محطة الثانوية العامة، ليدخلا الجامعة معًا هذا العام.

ابتسمت ليلى ابتسامة باهتة:

"أنت إيه اللي جابك هنا يا بني؟ أنت مش في تجارة إنجلش؟".

ردَّ، وهو يضع يده في جيبه بأريحيَّة:

"مانا لمحتك وأنا معدّي.. قولت أنكشك".

"فيك الخير والله.. إيه هتروح إمتى؟".

"ماشي دلوقتي أهو.. لو موراكيش حاجة تعالي أوصلك".

اتسعت عيناها بدهشة مصطنعة:

"إيه ده.. جبت عربية؟".

ضحك، وهو يضربها بخفَّة على كتفها:

"لا بالمترو يا خفيفة.. يلا بينا".

***

أومأ وليد برأسه لليلى، نظرة ممتنة ومشجعة في آن واحد، وكأنه يخبرها أنَّ رسالتها وصلت، وأنَّ حيرتها محلّ تقدير، ثم اختلس نظرة سريعة إلى ساعة يده، ليدرك أنَّ الوقت قد سرقهم؛ لم يتبقَّ سوى عشر دقائق.

تنحنح وليد، وحاول أن يضبط إيقاع الجلسة في أنفاسها الأخيرة، فوجَّه حديثه للمربع الذي به "رامي":

"شكراً يا ليلى على مشاركتك الصادقة.. إحنا أكيد هنرجع للنقطة دي تاني بتفصيل أكبر".

ثم انتقل بنظره إلى رامي:

"رامي.. الدور كان المفروض يلفّ ويرجعلك، بس للأسف الوقت دهمنا، قدامنا عشر دقايق بس.. يا ريت لو تقدر تشاركنا تعليقك، أو اللي عايز تقوله في كبسولة سريعة وموجزة".

فجأة، ولأول مرة منذ بدء الجلسات، أضاء المربع الأسود الخاص بـ "رامي".

شهقة مكتومة سادت الغرفة الافتراضية، الصورة كانت تتحدث بمليون كلمة، شاب في الثلاثينيات، وسيم بملامح حادة، يرتدي قميصاً أبيض "ماركة"، مفتوح الزر العلوي بإهمال مدروس، شعره مصفف بعناية فائقة، وفي معصمه ساعة سويسرية فخمة لمعت تحت إضاءة الغرفة، وكأنها تعلن عن ثمنها الباهظ.

كان يبدو كما وصفه خيالهم تماماً: "صياد ماهر"، يعرف كيف يوقع الفرائس، وتفوح منه رائحة الثقة التي تلامس حدود الغرور، حتى أنَّ عطره، رغم استحالة ذلك تقنيّاً، خُيّل لوليد أنه يتسرَّب عبر الشاشة ليملأ العيادة برائحة العود الفاخر والمستفز.

مال رامي نحو الكاميرا، ونظر إلى ليلى نظرة ثاقبة، وقال بصوت رخيم، وهادئ:

"شكراً يا ليلى.. فكَّرت في كلامك في أول جلسة، لما قولتي إننا مستخبيين ورا شاشات سوداء، الحقيقة إني معنديش حاجة تمنعني أظهر بوشي الحقيقي".

ثم أرجع ظهره إلى الوراء بأريحيَّة، وبدأت ملامح الغرور تتلاشى تدريجيّاً ليحلَّ محلَّها ظلُّ طفلٍ مجروح، وبدأ يحكي:

"كنت واقف قدامه.. أصفر، مرعوب، زي متهم منتظر حكم الإعدام، النتيجة ظهرت، والمجموع كان زي الزفت".

***

كانت الكلمات تخرج من فم الأب كطلقات الرصاص، مشحونة بقهر رجل أفنى عمره في الوظيفة، ويرى "شقا عمره" يتبخَّر:

"بص لزمايلك.. بص لولاد الجيران اللي رفعوا راس أهاليهم! ناقصك إيه عنهم؟ ده أنا موفرلك لبن العصفور.. الدروس وكنت بدفع دم قلبي، لبس وجبتلك أنضف حاجة، أنا حارِم نفسي من اللقمة، ومن هدوم تسترني عشان أوفرلك مصاريفك.. ده جزاتي؟ ده جزاء الشقا اللي شقيته طول عمري؟".

كان رامي يقف أمامه بوجهه الشاحب، يرتجف كورقة شجر في مهبِّ ريح خريفية، عيناه مثبتتان على طرف السجادة المتواضعة، يبتلع ريقه بصعوبة، وكأنه يبتلع شفرات حلاقة. حاول أن ينطق، أن يبرر، لكنَّ صوته مات في حنجرته أمام ثورة والده.

تدخَّلت الأمُّ، بعباءتها المنزلية البسيطة، تحاول أن تكون درعاً واقياً بين المطرقة والسندان، وعيناها تفيضان بالدموع:

"اهدى يا حاج.. الولد أعصابه تعبانة، والنتيجة لسه طالعة.. مش كده، صحته أهم".

لكنَّ الأب دفع كلماتها بيده في الهواء، وكأنه يهشُّ ذبابة، واستمرَّ في وصلة التقريع، مستخدماً سلاح "الذنب" المفضل لدى الطبقة المتوسطة: "الفلوس والتضحية".

لم يجد رامي مفرّاً سوى الانسحاب. جرَّ قدميه الثقيلتين نحو غرفته الضيقة، وأغلق الباب خلفه، ليرتمي على سريره.

بكى بحرقة الطفل الذي خذل بطله، بكى حتى تورمت عيناه، ومن فرط القهر والإنهاك النفسي، غاب في نوم عميق وثقيل، هروباً من واقعه.

لم يدم الهروب طويلاً، انتفض جسم رامي فجأة على يد خشنة تهزُّه بعنف.

فتح عينيه بصعوبة؛ ليرى والده يقف فوق رأسه، ملامحه لم تعُد غاضبة، بل كانت تحمل تصميماً مخيفاً، تصميم رجل قرر أن يقامر بآخر ما يملك.

قال الأب بصوت آمر لا يقبل النقاش: "قوم فزّ.. أنا اتصرفت".

اعتدل رامي في جلسته، وهو يفرك عينيه، ليسمع الحكم النهائي الذي نزل عليه كالصاعقة:

"كلمت واحد صاحبي، عنده مكتب تسفير للطلبة.. ابنه بيدرس برة، ومسافر الأسبوع الجاي. أنا اتفقت معاه خلاص، بكرة الصبح هنروح نخلص ورقك، وهتسافر معاه".

اتسعت عينا رامي بذهول:

"سفر إيه يا بابا؟ وإحنا معانا فلوس للسفر؟ ده مصاريفه نار!".

ردَّ الأب بحدة قاطعة، وعيناه تلمعان ببريق غريب:

"ملكش دعوة.. هتصرف".

أدرك الفتى في تلك اللحظة القاسية أنَّ والده على استعداد تام لأن يحرق سفن العائلة كلها، ويضحّي بمدخرات العمر، ويبعد ابنه الوحيد آلاف الأميال، فقط لكي يمتلك "جملة مفيدة" يقولها بتباهٍ مزيف وسط جلسة النميمة مع زملائه الموظفين أو جيرانه:

"والله رامي ابني ميعجبوش التعليم هنا.. فقررت أسفره يكمل تعليمه برة".

نزع السماعة عن أذنيه ببطء، وكأنه ينزع خوذة حرب بعد معركة طاحنة. ساد صمت مطبق في العيادة، صمت ثقيل يختلف تماماً عن صمت ما قبل الجلسة. كان الهواء مشبعاً بوجع "ليلى"، وقهر "رامي"، وانكسار "ريم"، وعقدة "يحيى"، وأنفاس "عبد المجيد" اللاهثة.

تنهَّد بعمق، وسحب دفتر ملاحظاته الجلدي وقلمه، وبدأ يكتب بسرعة قبل أن تتفلَّت التفاصيل من ذاكرته، رغم أنَّ ما سمعه الليلة لا يُنسى.

خطَّت يده عناوين عريضة، وكلمات مبعثرة على الورق الذي امامه حتي غالبه النوم.

"والله رامي ابني ميعجبوش التعليم هنا.. فقررت أسفره يكمل تعليمه برة".

نزع السماعة عن أذنيه ببطء، وكأنه ينزع خوذة حرب بعد معركة طاحنة. ساد صمت مطبق في العيادة، صمت ثقيل يختلف تماماً عن صمت ما قبل الجلسة. كان الهواء مشبعاً بوجع "ليلى"، وقهر "رامي"، وانكسار "ريم"، وعقدة "يحيى"، وأنفاس "عبد المجيد" اللاهثة.

تنهَّد بعمق، وسحب دفتر ملاحظاته الجلدي وقلمه، وبدأ يكتب بسرعة قبل أن تتفلَّت التفاصيل من ذاكرته، رغم أنَّ ما سمعه الليلة لا يُنسى.

خطَّت يده عناوين عريضة، وكلمات مبعثرة على الورق الذي امامه حتي غالبه النوم.

(الجلسة الخامسة)

جلس "وليد" يلملم شتات أفكاره قبل موعد الجلسة الخامسة بدقائق. كان السؤال يلحُّ عليه: "هل آن الأوان لتسقط الأقنعة؟ هل ستتحول باقي المربعات السوداء الصامتة إلى وجوه بشرية ناطقة؟."

تذكَّر كيف كسر "رامي" حاجز العتمة في المرة السابقة، مما منحه بصيص أمل.

مرت ثوانٍ ثقيلة، ثم بدأت الجلسة، وفجأة، وكأنَّ السماء استجابت لإحدى أمنياته الدفينة؛ أضاءت الشاشة كاشفة عن وجهٍ جديد.

كان رجلاً في أواخر الثلاثينيات، غادر شرنقة المربع الأسود ليواجه الكاميرا. ملامحه تحمل ثقل السنين؛ لحية كثة غزاها الشيب، وشعر أشعث يبدو أنه لم يعانق المشط منذ زمن، مما يشي بحالة من الإهمال أو الزهد.

بادر وليد بكسر الصمت:

"أهلاً يا يحيى".

ردَّ يحيى التحية بصوت خافت، لم ينتظر وليد طويلاً، بل شجعه بابتسامة هادئة على استثمار هذه الخطوة الجريئة، وغير المتوقعة، والبدء في الحكي.

بدأ يحيى يسرد حكايته، وعاد بذاكرته إلى تلك الليلة الفاصلة:

مرَّت "قعدة الاتفاق" هذه المرة كنسيم بارد، بلا مطبات مفاجئة أو أسئلة مفخخة. لم تتهامس النسوة بعبارة "ابن أمه" السامة، ولم يرفع الرجال حواجبهم بفضول سائلين: "أين الوالد؟". فالأوراق كلها كانت مكشوفة؛ يحيى بالنسبة إلى عائلة "طنط نبيلة" هو كتاب مفتوح، قرؤوا فصوله سابقًا، يعرفون تاريخه، وتربيته الصارمة، وحتى صنف طعامه المفضل.

لم يكن هناك ما يُخفى، وكان هذا الوضوح هو طوق النجاة الذي انتشله أخيراً من مستنقع الرفض المتكرر.

وعلى عكس الصراعات المتوقعة في مثل هذا الزواج، ظفر يحيى بجائزته الكبرى: شريكة حياة "هادئة" تجيد لغة الصمت. زوجة لا تجادل، لا ترفع صوتها، وتتقن فنَّ الطاعة الذي تقدِّسه والدته. كانت أشبه بقطعة أثاث أنيقة، ومريحة أضيفت لحياته لملء الفراغ دون أن تسبِّب أي ضجيج.

تم الزواج، ومرَّت ثلاثة أعوام بسرعة روتينية، تكللت بقدوم "الحفيد" الذي انتظرته الجدة طويلاً.

كان المشهد مثالياً.. مثالياً أكثر من اللازم، ومخيفاً في كماله.

لم يغادر يحيى حضن أمه فعليّاً، فقد تزوج في الشقة المقابلة لها تماماً؛ "باب في وش باب". تلاشت الحدود والفواصل؛ فرائحة طبيخ أمه

تقتحم شقته يومياً، وصوتها يتردد في الصالة، وكأنها الفرد الرابع في الأسرة.

كانت الأم حاضرة بلا انقطاع، تملك مفاتيح البيت (مجازياً وفعلياً)، تدير شؤون الحفيد الصغير، وتوجِّه الزوجة الصامتة، بينما يعيش يحيى في منتصف هذا "المثلث" مطمئناً، متوهِّماً أنه حقق المعادلة المستحيلة: أرضى أمه، وتزوج، وأنجب، دون أن يخسر ذرة واحدة من سلطة "الست الكبيرة".

***

قاطع دكتور "وليد" سرد يحيى لروتين حياته بسؤال مباغت، وكأنه يلقي حجراً في مياه راكدة ليكشف ما تحتها:

"بالمناسبة يا يحيى.. لم تخبرني، هل لديك أصدقاء؟".

بدت الدهشة على وجه يحيى، وكأنَّ السؤال جاء بلغة لا يتقنها. صمت للحظات، يحاول استحضار وجوه من ذاكرته، ثم أجاب بنبرة من يكتشف فداحة عزلته للمرة الأولى:

"لا أستطيع أن أسميهم أصدقاء بالمعنى الحقيقي للكلمة.. يعني.. لدي أولاد خالتي، وهناك جارنا الذي هو شقيق زوجتي. نلتقي في المناسبات أو بحكم الجيرة، لكن.. هل هؤلاء يُحتسبون أصدقاء؟ في الحقيقة، أنا لا أعرف.. لا أعرف ما الصداقة أصلاً؟ أو كيف من المفترض أن تكون؟".

سجَّل وليد هذه الملاحظة في عقله؛ يحيى يعيش في فقاعة عائلية مُحكمة الإغلاق، علاقاته كلها "ميراث" وليست "اختياراً". قرر أن يتركه ليتأمل هذا الفراغ، وينقل الدفة إلى مربَّع آخر بدأ يضيء ببطء.

اتجهت أنظار وليد إلى "عبد المجيد"، الرجل المسنّ الذي كان حضوره باهتاً في الجلسات السابقة بسبب تعبه.

ابتسم وليد مشجعاً، وهو يرى ملامح الرجل أكثر وضوحاً اليوم:

"أستاذ عبد المجيد، أنا سعيد حقاً برؤية تحسن حالتك اليوم، يبدو وجهك أكثر إشراقاً".

اقترب وليد من الشاشة قليلاً، محاولاً استنطاق ذكريات الرجل بلطف:

"إذا كان مجهود الكلام لن يتعبك.. كنت قد أشرت لنا إشارة عابرة في المرة السابقة أنَّ هناك شخصاً يزورك دائماً، وقلت إنه (ابن صديقك)، هل يمكن أن تحدثنا أكثر عن علاقتك بصديقك هذا؟ من يكون؟ وكيف امتدَّ الود لابنه من بعده؟".

تنهَّد "عبد المجيد" بعمق، وكأنَّ السؤال قد فتح باباً لذكريات عتيقة، وبدأ صوته يتهدَّج بمشاعر دافئة، وهو يوجِّه حديثه إلى يحيى:

"صحاب.. بتسألني عن معنى الصحاب؟ بصراحة يا بني أنا معرفش في الكلام الكبير والفلسفة دي.. بس لو اللي بيني وبين (حسن) ده هو الصحوبية، يبقى دي أحلى حاجة في الدنيا".

سرح ببصره قليلاً، وكأنه يرى شريط حياته يمرُّ أمامه، ثم أكمل بابتسامة صافية:

"أنا وحسن طالعين من طينة واحدة.. من وإحنا عيال في البلد، ولما جينا القاهرة عشان العلام، سكنا في أوضة واحدة.. قسمنا فيها اللقمة والأحلام. الدنيا فرقتنا بعد كده، كل واحد سكن في حتة، بس القلوب فضلت على اتصال، حتى لما سافرت السعودية إعارة سنتين.. أيامها بقى لا كان فيه موبايلات، ولا واتس آب ولا الحاجات بتاعتكم دي.. رجعت لقيته زي ما هو.. الزمن كبرنا، بس حسن متغيرش.. نفس الخفة ونفس القلب الأبيض".

ابتسم عبد المجيد ابتسامة واهنة، وهو يتابع:

"كبرنا خلاص.. والولاد كبروا.. بس لسه الود موصول. حسن دلوقتي تعبان وحركته بقت تقيلة عليه، ومع ذلك بيصمم يجيلي مرة كل أسبوع.. يونسني ويكسر وحدتي".

ثم نظر إلى يحيى نظرة أب ناصح:

"لسه العمر قدامك يا يحيى.. اعمل صحاب، ولو معرفتش.. أوعى تحرم ولادك من النعمة دي".

أومأ الدكتور "وليد" برأسه تأثراً، وشكر "عبد المجيد" بامتنان على كلماته التي لامست قلوب الجميع، ثم التفت بكرسيه نحو الشاشة التي

تحمل اسم "ليلى":

"شكراً جداً يا حاج عبد المجيد.. كلامك يوزن بلد."

ليلى.. الميكروفون معاكي، كملي من مكان ما وقفنا المرة اللي فاتت".

أضاء مربع "ليلى"، وبدأت تحكي بصوت يحمل مزيجاً من الإصرار والخوف:

"أيوه.. أخيراً العزلة اتكسرت. لأول مرة يبقى ليا (شلة)، وضحك بجد، وخروجات وحياة دوشة بس حلوة.. وسط كل ده، طلعت فكرة (رحلة إسكندرية) في أجازة نص السنة".

صمتت قليلاً، وكأنَّ الاسم نكأ جرحاً، ثم ضحكت بمرارة:

"شوفت السخرية؟ إسكندرية! دي اللي كانت في خيالي من كام شهر هي (عش الزوجية) اللي بحلم بيه مع فارس أحلامي.. دلوقتي بقت المكان اللي لازم أروحه عشان (أخلص".(

أكملت ليلى تسرد صراعها الداخلي، وصوتها يرتجف قليلاً:

"السفرية دي مكنتش فسحة.. دي كانت (مهمة انتحارية). أنا قررت أروح لسبب واحد بس: لازم أواجهه.. لازم نتقابل وش لوش عشان أنهي المسرحية دي. حاولت كتير أعمل (Block) وأرتاح، بس

صوابعي كانت بتتشل في آخر لحظة. العلاقة خلاص بردت وبقت ماسخة، عاملة زي أكل حمضان لازم يترمي. أنا بتحجج بالامتحانات عشان أهرب منه، وهو بينام ومرتاح عشان (ضامنّي).. فاكرني مضمونة وفي جيبه وقت ما يعوزني".

وصلت ليلى في حديثها إلى منطقة الرعب الحقيقي:

"كان لازم أنهي كل ده عشان أرجع لنفسي.. عشان أعيش خفيفة زي صحابي الجداد من غير (ذنب) كاتم على نفسي. بس كان فيه (بعبع) واقفلي في الظلمة ومكتفني.. الصور".

"افرضي محتفظ بيهم؟ افرضي بيسجل صوتي وأنا بحكيله وبضعف؟ افرضي قرر ينتقم ويفضحني لو بعدت؟".

"الأسئلة دي كانت بتلف في دماغي زي الطاحونة مابتقفش. ملقتش حل غير إني أقابله.. لازم أبص في عينيه، عشان أعرف ناوي على إيه.. أستجدي رجولته -ده لو عنده- أو أعمل معاه (اتفاقية سلام) تخليني أخرج بأمان من غير فضايح. عشان كدة حسمت أمري.. هسافر إسكندرية، مش عشان أبدأ قصة حب زي ما كنت هبلة وبحلم.. لأ.. عشان أكتب المشهد الأخير".

نازع القلقُ "وليد" على حالة "ليلى"، وودّ لو يملك رفاهية الوقت ليمدَّ خيط الحديث، ويعرف ما حدث في الإسكندرية، لكن عقارب

الساعة كانت له بالمرصاد؛ فالجلسة لها إيقاع يجب ألا يختلّ، وحقّ الآخرين في الكلام مقدس.

وجَّه وليد نظره شطر "جنى"، الفتاة التي بدأت ملامحها تكتسب قسوة ناعمة بمرور الجلسات، وأشار إليها لتكمل حكايتها، فانطلق صوتها يسرد تفاصيل "الفلاش باك":

"مع صباح أول الشهر، روحت الشركة.. كنت خايفة ومتحمسة في نفس الوقت. كان عندي ميعاد مع الـHR ، وهناك قابلت الدكتور سعيد".

استقبلها الدكتور سعيد في مكتبه الأنيق بابتسامة مهنية، كسر حدة اللقاء بكوب شاي ساخن، ثم بدأ يشرح لها طبيعة المرحلة:

"بصي يا بشمهندسه.. إنتي حالياً في مرحلة (الاسفنجة).. مش مطلوب منك أي إنتاج، مطلوب منك بس تفتحي عينيك، وتراقبي، وتتعلمي. أنا عملت لك برنامج تدريب مكثف لمدة شهر، هيكون تحت إشرافي العام، بس اللي هينفذه معاكي المهندس إبراهيم".

رفع سماعة الهاتف، وطلب استدعاء "إبراهيم".

لم تمضِ دقائق حتى فُتح الباب، ودخل إبراهيم.. أو بالأحرى "اقتحم" المكان بهالته. شاب يافع، ملامحه خمرية جذابة، يملأ الفراغ حوله ثقة تكاد تلامس الغرور.

عرّفه الدكتور سعيد عليها باقتضاب، ثم أصدر الأمر المباشر:

"يا إبراهيم.. استلم الباشمهندسة وابدأ معاها البرنامج فوراً".

فتح إبراهيم لها الباب بتهذيب مدروس، وخرج خلفها، وعيناه تتفحصانها بجرأة، وتقييم صريح.

ذابت جنى في دوامة العمل أسرع مما توقعت. كانت الأيام تمضي كالبرق، مشحونة بتفاصيل المواقع والرسومات، بينما الليالي تزحف ببطء السلحفاة، يزورها فيها طيف "هاني" على استحياء. كانت تستحضر صورته وصوته كمن يتناول دواءً مرًّا للحفاظ على المناعة ضد النسيان، جرعة يومية من "الوفاء" لا أكثر.

لكن "إبراهيم" لم يترك لها مساحة للتنفس. ملأ جدولها عن آخره؛ تدريب ميداني يلتهم النهار، وتكليفات معقدة تلاحقها إلى المنزل. انشغلت بكلِّ جوارحها، ليس فقط لإنجاز العمل، بل لتثبت لهذا المدرب الصارم أنها ليست "فتاة مدللة" جاءت بتوصية.

انقضى الشهر الأول..

وجاءت اللحظة الفارقة حين تسلَّمت "ظرفاً" مغلقاً يحوي راتبها الأول. ملمس النقود التي كسبتها بعرق جبينها منحها شعوراً طاغياً بالاستقلالية والقوة.

وفي ذروة نشوتها، استدعاها إبراهيم إلى مكتبه.

هذه المرة، اختفت التكشيرة المعتادة، وحلَّت محلَّها ملامح جدية هادئة. أخبرها أنها اجتازت التدريب بنجاح باهر، وأنها صارت جزءاً أساسياً من الفريق.

ابتسمت جنى، وشكرته، وهمَّت بالانصراف، لكنَّ صوته استوقفها بنبرة رجل لا يهاب شيئاً:

"بالمناسبة يا جنى.. أنا عايز أتقدم لك".

تجمَّدت في مكانها، قالها هكذا، بلا مقدمات عاطفية، بلا موسيقا تصويرية، وبلا ذرة تردد. الجرأة نفسها التي يدير بها الموقع، يدير بها حياته.

وقبل أن تنطق بحرف، نظر إلى ساعته، وحسم الأمر:

"مش محتاج رد دلوقتي.. خدي وقتك وفكري، ومعاكي مهلة للأسبوع الجاي.. يوم الأحد هسمع ردك".

نزلت جنى من ميكروباص الشركة، وعقلها يغلي كمرجل، وما إن وطئت قدماها أرض الشارع القريب من بيتها، حتى تسمرت مكانها.

كان واقفاً هناك.. لكنه لم يكن "هاني" الذي ودعته، وجدت صعوبة في التعرف عليه؛ الشمس نحتت ملامحه بقسوة، بشرته اكتسبت سمرة داكنة، وجسده النحيل تضاءل حتى بدا كهيكل أنهكه التعب.

همست له بسرعة خشية أن يلمحهما أحد:

"مش هينفع نقف هنا.. نتقابل في الجنينة اللي في الشارع اللي ورانا.. كمان ربع ساعة".

في زاوية هادئة تحت الشجر، التقيا. أخبرها بصوت مبحوح أن لديه إجازة خاطفة، ٢٤ ساعة فقط قبل العودة للجحيم.

تحدثا لساعتين، لكنَّ شيئاً ما كان مكسوراً.. لغة الحوار اختلفت. هو يتحدث من قاع "الصمت والانتظار"، وهي قادمة من قمة "السرعة والإنجاز".

حاول هاني ردم الفجوة بكلمات رومانسية، قال بصدق المحبِّ:

"أنا كنت بشوف طيفك كل ليلة قبل ما انام، هو ده اللي كان بيصبرني على التعب، وهو اللي كان بيهون عليا الأيام".

ابتسمت جنى مجاملة، لكنَّ كلماته بدت لها هشة، ضعيفة، لا تليق بامرأة عاملة ومستقلة.

انتهى اللقاء، وعادت جنى إلى منزلها.. وطوال الطريق كانت "المقارنة" تذبح الرومانسية بسكين الواقع البارد.

رسم خيالها المستقبل بوضوح مرعب: هاني سيأتي ليعمل هنا بعد عام.. سيكون مجرد "مهندس صغير" يتلقى الأوامر، بينما "إبراهيم" هو المدير، هو القائد، هو صاحب الكلمة العليا.

تخيلت مشهد هاني، وهو يقف مطأطئ الرأس أمام مكتب إبراهيم.. وتخيلت نفسها وهي ترى زوجها "صغيراً" أمام مديرها "الكبير".

استقرَّت الحقيقة في قلبها كطلقة: هي تريد إبراهيم.. القوة، المستقبل، والجاهزية. لكنها لا تملك شجاعة الاعتراف بالخيانة.

لذا، قررت اللجوء للحيلة الدفاعية القديمة؛ إلقاء الكرة في ملعب "السلطة العليا".

قررت أن تخبر أمها، وهي تعلم يقيناً أنَّ الأمَّ لن تفوت فرصة "العريس اللقطة". هي لا تستشيرها، بل تعطيها "التفويض" لتجبرها، لتقول لاحقاً لضميرها: "غصب عني.. النصيب وأهلي".

بمجرد دخولها، وجدت أمها في الصالة، تنفست بعمق، وألقت القنبلة:

"يا ماما.. فيه مهندس معايا في الشغل، ومديري المباشر.. عايز يجي يتقدم لي".

لم تكد تكمل الجملة حتى لمعت عينا الأم، وانطلقت الأسئلة بلهفة، وعرفت جنى في تلك اللحظة أنَّ الأمر قد قُضي، وأنَّ صفحة هاني قد طُويت بقرار عائلي.. تماماً كما خططت.

***

ساد صمت ثقيل، ومربك في القاعة الافتراضية؛ صدمة جماعية ألجمت الألسنة من جرأة "جنى" وحساباتها الباردة، حتى الدكتور "وليد"، الخبير بالنفس البشرية، وجد نفسه عاجزاً عن التعليق، لم يجد كلمات مناسبة؛ هل يوبخها على انتهازيتها؟ أم يحيي صدقها الوحشي؟

ارتبك للحظات، ثم تمتم بكلمات شكر مقتضبة، وقرر الهروب سريعاً من هذه المنطقة الشائكة قبل أن ينفجر لغم أخلاقي بين المشاركين. التفت بنظره إلى "ريم" كمن يبحث عن طوق نجاة، آملاً أن تكون قصتها أقل وطأة، أو ربما لتنهي هذه الدهشة المعلقة في الهواء.

أعطاها الإشارة، فبدأت ريم تسرد فصل الختام:

***

"مرت الأيام التالية على ريم، وهي تسير على حبل مشدود؛ حياة مزدوجة تعيشها بين جدران المنزل وخارجه. مكالمات مسروقة، همسات خاطفة عبر الهاتف بعد عودته من العمل، وكلُّ ذلك بعيداً عن (رادارات) الأم التي لا تغفل.

كتمت ريم السرَّ في صدرها، ولم تخبره بما حدث في المنزل يوم عزاء والدته، لم تشأ أن تزيد حمله ثقلاً فوق أحماله، وهو الذي لا يملك من أمره شيئاً.

وبينما هي غارقة في دوامة القلق، أضاء شاشة هاتفها باسمه. ردت بلهفة المحبِّ، فأخبرها بصوت يقطر إجهاداً أنه يريد رؤيتها غداً ضروري في (مكانهما) المعتاد.

تنفَّست الصعداء، وهدأت عاصفة الوساوس في رأسها؛ استنتجت بسذاجة عاشقة صغيرة أنه قادم أخيراً بالهدية التي نسيها، ليعتذر عن ارتباك اللقاء السابق، وليعيد المياه لمجاريها.

مرَّ الوقت ببطء قاتل، كأنها تشاهد فصول مسرحية مملة تُعاد للمرة الألف، حتى حانت لحظة اللقاء.

رأته قادماً من بعيد.. لكنَّ قلبها انقبض؛ شيئاً ما كان ناقصاً. خطواته ثقيلة، كأنما يجرُّ العالم خلفه، انحناءة ظهره زادت، وحين اقترب، رأت الدمار يسكن عينيه، كانتا حمراوين، منتفختين، وكأنَّ النوم جافاه لليالٍ طوال. والأهم من ذلك.. انطفأت (لمعة اللهفة) التي كانت تطمئنها دائماً بوجوده.

جلس أمامها، وبلا مقدمات، ولا تمهيد، ألقى القنبلة بهدوء مخيف:

"أخوكي جالي البيت امبارح يا ريم".

شهقت، وتجمَّد الدم في عروقها، وقفز السؤال مرعوباً:

"عملك حاجة؟ ضايقك بكلمة؟".

هزَّ رأسه نفياً بأسى، وابتسامة مكسورة تعلو ثغره:

"ياريت.. ياريته كان شتمني ولا حتى ضربني، كنت عرفت أرد، أو كنت ارتحت، بس هو كان أذكى من كدة بكتير.. هو كسرني بالأصول".

صمت قليلاً يبتلع غصة حارقة في حلقه ثم أكمل:

"قعد وكلمني بالعقل.. قالي كلام يوجع عشان حقيقي. قالي لو بتحبها بجد، سيبها تعيش. قالي إني بربطك جنبي في طريق مسدود، وإن الحب مش هيأكلك، ولا هيفتح بيت في الزمن ده. قالي بالحرف:

(أثبت إنك راجل وبتحبها بجد.. وأبعد عنها عشان متضيعش عمرها جنبك)"

كان منطقه سيفاً بارداً قطع كلَّ حبال الأمل الواهية.

لم يكن تهديداً، بل كان حكماً بالإعدام مغلَّفاً بنصيحة أخوية.

نظر إليها بعينين دامعتين، مستسلماً لواقع أقوى منه:

"هو عنده حق يا ريم. أنا بحبك.. وعشان بحبك بجد.. لازم أمشي".

مدَّ يده ببطء مرتعش إلى حقيبته، وأخرج "علبة الهاتف" الفاخرة.

لم يفتحها، لم يمزِّق غلافها، وكأنه يعلن أنَّ ما بداخلها ليس من حقه، وأنَّ عالمه الضيق لا يلتقي بعالمها الرحب.

وضع الهاتف أمامها على الطاولة، وكأنه يضع "قلبه" الذي يخلعه بيده،

"دي حاجتك.. ودي حياتك اللي تستاهليها بعيد عني".

حاول أن يتماسك، عضَّ على شفته السفلى حتى ابيضت ليحبس دموع الرجال القهرية. قام من مكانه ببطء، وتحرَّك مبتعداً دون أن يلتفت، لأنه يعلم يقيناً أنه لو التفت.. فسيعود، وسينهار كلُّ شيء.

رحل "محمود" وتركها خلفه، والعلبة الفاخرة تفصل بينهما كجدار عازل.. بينما لم تقوَ هي على الحراك، وانهارت حصونها الصامتة أمام سيل الدموع".

***

أمام حزن "ريم" المسموع عبر الشاشة السوداء، ونشيجها الذي قطع نياط القلوب، قرر الدكتور "وليد" احترام دموعها، وأن ينقل الدفة بهدوء إلى المربع الأسود الصامت، مربع "آمال"، لعلَّ في حكايتها ما يواسي أو يشتت الانتباه عن هذا الألم.

بدأت آمال تسرد رحلة "التطهر" والخوف:

***

مرَّت ستة أشهر وكأنها دهر كامل.. انقلبت فيها حياة آمال رأساً على عقب. تحولت من تلك الفتاة اللاهية إلى زاهدة تعتكف في صومعة الندم، لا تفوِّت محاضرة، تعود إلى المنزل فور الانتهاء كأنَّ الشوارع تطاردها، ولا تتأخَّر عن فرض.

يوم "الخميس" الذي كان شاهداً على سقطاتها، أصبح ميقات تطهرها؛ استبدلت بنزهة السيارة الحرام درس فقه ومقرئة لحفظ القرآن في مسجد قريب من الكلية.

اختفى ذلك "الشبح" من حياتها تماماً.. لم يظهر في العزاء، لم يتصل، ولم يكلِّف نفسه عناء رسالة مواساة، تبخَّر كأنه دخان، وكأنه كان ينتظر سقوطها ليهرب.

الشيء الوحيد الذي كان يهوِّن عليها وحشة الأيام هو طيف أبيها؛ يزورها في المنام مبتسماً، راضياً، فتستيقظ والدموع تبلل وسادتها وهي تعاهد الله:

"وحياتك عندي يا بابا لفضل زي ما كنت تتمنى تشوفني".

لكنَّ غصة واحدة ظلَّت عالقة في حلقها كشوكة، "صديقتها المقربة".

مستودع أسرارها، والوحيدة التي تعرف القصة كاملة، بدأت تتلاشى تدريجيّاً. تتهرَّب من اللقاءات، وتتحاشى النظر في عيني آمال.

كانت آمال تشعر بانقباض قلبها كلما رأتها من بعيد، تشعر بأنَّ جزءاً من ماضيها يفرُّ منها.

وفي خميسٍ ما، وبينما كانت آمال تخرج من بوابة الكلية متوجهة إلى "موعدها مع الله" في المسجد، تجمَّدت في مكانها.

رأته.. السيارة نفسها، الوقفة المريحة نفسها، النظرة الباردة نفسها.

رمق آمال بنظرة طويلة، خاوية من أيِّ مشاعر، نظرة غريب لغريب.. ثم قطع النظرة ليمدَّ يده مصافحاً فتاة أخرى.

لم تكن تلك الفتاة سوى "صديقتها الأنتيم!".

تلك التي كان يصفها سابقاً بـ "الكئيبة والنكدية"، ويسخر منها أمام آمال، هي نفسها التي فتحت باب السيارة، وركبت مكانه، في "مقعد آمال" القديم.

تحرَّكت السيارة ببطء أمام عينيّ آمال المذهولتين.. رحل الماضي مع "الضحية" الجديدة، وترك آمال واقفة على الرصيف، وحيدة، ولكنها لأول مرة.. حرَّة.

مرَّت الشهور، وآمال الجديدة كانت كالنبتة التي تشقُّ طريقها في أرض قاحلة، ترويها بدموع الندم. أنهت دراستها الجامعية بتفوق لم يتوقعه أحد، وكأنَّ الدراسة أصبحت درعاً تحتمي به من الفراغ.

في المسجد، تعرَّفت على صحبة صالحة؛ نساء يبحثن عن السلام، فكنَّ عوضاً لها عن "صاحبتها الوحيدة" التي اختارت طريق التيه.

لكنَّ الندم لم يكن يغادرها تماماً.. في الليالي الطويلة، كانت أطياف الماضي تتسلل كاللصوص إلى أحلامها.

كانت تقف أمام المرآة، تتأمل وجهها الذي ازداد نوراً وهدوءاً تحت الخمار الأسود، وتسأل نفسها برعب:

"هو أنا بجد اتغيرت؟ ولا أنا بستخبى؟."

كانت تعلم أنَّ التوبة ليست مجرد تغيير في الملابس، بل معركة يومية شرسة مع شيطان يهمس في أذنها: "أنتي مش نظيفة.. أنتي متستاهليش تبقي سعيدة".

ثم ظهر "هو" في المشهد..

التقته مصادفة في إحدى الندوات الدينية، رجل ثلاثيني، تكسو ملامحه جدية صارمة، وعينان تحملان نظرة شخص "شبعان" من الدنيا. كان نقيضاً تماماً لذلك "الشاب العابث"؛ وقته محسوب، وكلامه بالقطارة، وحياته مسطرة وقلم.

بعد انتهاء الندوة، لمحها تقف تنتظر المواصلات، فعرض عليها التوصيل بحكم صداقته لأخيها، وبنبرة مهذبة للغاية.

اعتذرت هي بأدب حازم، ورفضت الركوب، ثم انصرفت مسرعة.

ذهبت هي، لكنَّ طيفها استوطن عقله.

عاد الرجل إلى بيته تلك الليلة، وهو يحدِّث نفسه بانبهار:

"هي دي.. دي اللي هتحفظ بيتي واسمي، رفضت تركب عربية حدّ غريب لمجرد الشبهة.. مش زي بنات اليومين دول اللي بنسمع عنهم. دي الجوهرة اللي هتصون العرض والشرف.. دي عمود البيت اللي بحلم بيه".

لم يطُل الانتظار حتى جاءت والدة آمال تزف إليها الخبر؛ صديق أخيها، ذلك الرجل "الوقور"، يطرق الباب طالباً القرب.

في "الرؤية الشرعية"، كان اللقاء مختلفاً عن كلِّ سيناريوهات الروايات الرخيصة التي عاشتها آمال سابقاً.

لم يكن هناك صخب مشاعر، بل كان هناك "أمان."

أعجبت آمال بهدوئه، واتزانه، رأت فيه "الحصن" الذي سيحميها من ذئاب البشر، ومن نفسها قبل كلِّ شيء.

أما هو.. فقد جن جنونه بها!

رأى فيها تجسيداً لآماله، واستجابة لدعواته بامرأة صالحة لم تلوثها "مدنية" العصر. فاقت صورته الذهنية عن "الزوجة العفيفة"، خاف أن

تفلت من بين يديه هذه "الدرة المكنونة"، فعاد بعائلته في الأسبوع نفسه، وتمت الخطبة رسمياً بسرعة أذهلت الجميع.

بعد ستة أشهر فقط، وتحت مباركة الأهل، عُقد القران.

كان الزفاف بسيطاً، هادئاً، يلفُّه الوقار.. بعيداً كلَّ البعد عن "الأفراح الهيصة" التي كانت تحلم بها آمال في أيام طيشها.

لكن في تلك الليلة، وهي ترتدي فستانها الأبيض، شعرت بمزيج معقَّد من الفرح والرعب.

نظرت إلى نفسها في المرآة، وهمست بوجل:

"يا ترى أنا جاهزة لده؟ يا ترى أنا أستاهل الأبيض ده؟".

كانت تخشى أن ينظر في عينيها طويلاً، فيرى انعكاساً لماضٍ تحاول دفنه حيّاً.

لكنَّ مخاوفها تبددت مؤقتاً أمام حنانه.

كان يعاملها كملكة متوجة، أو كشيء زجاجي ثمين يخشى عليه من الخدش. حياتها بدأت كقصيدة صوفية؛ يقرأ معها ورد القرآن قبل النوم بصوت عذب، يوقظها لصلاة الفجر، ويشاركها أحلامه الوردية عن بناء "أسرة مسلمة نموذجية".. وهي تبتسم له، وفي قلبها دعاء خائف: "يارب الستر.. يارب الستر".

أدرك "وليد" أنَّ الجرعة اليوم كانت أثقل من أن تحتمل المزيد. قصة "آمال" تحديداً، بذلك التناقض المرعب بين ماضيها السري، وواقعها "المقدس" في عين زوجها، كانت بمنزلة الختام الذي يحتاج إلى صمت طويل لاستيعابه.

نظر إلى الساعة، ثم تنحنح ليعلن نهاية هذا البوح المتشابك:

"كفاية لحد كده النهاردة.. الجلسة كانت تقيلة، وفيها قرارات ومواجهات مصيرية، محتاجين كلنا نفصل، ونفكر في اللي اتقال. ميعادنا الأسبوع الجاي في نفس الوقت.. تصبحوا على خير".

توالت عبارات الوداع المقتضبة، وانطفأت المربعات واحداً تلو الآخر، حتى عاد سطح المكتب لصمته الإلكتروني المعتاد.

أغلق وليد جهاز اللابتوب ببطء، وكأنه يغلق باباً على غرفة ممتلئة بالأشباح.

أسند ظهره إلى الكرسي الجلدي، وأشعل سيجارة أخيرة قبل المغادرة، بينما عقله يقلِّب وجوه الجلسة كأوراق اللعب.

اليوم، سقطت الأقنعة لتكشف عن وجوه أخرى غير التي يراها الناس:

"يحيى" الذي اشترى راحته ببيع رجولته لأمه..

"جنى" التي داست على قلبها بحذاء الطموح المادي..

"ريم" و"محمود" ضحايا لسان الناس، ومقاييس المجتمع الظالمة..

و"آمال".. القنبلة الموقوتة التي تنام في حضن رجل يظنها ملاكاً، بينما هي تخوض حرباً يومية مع شياطين الذاكرة.

نفث وليد دخان سيجارته في الهواء، وهمس لنفسه بأسى:

"كلنا بنجري.. يا بنجري ورا حاجة، يا بنجري من حاجة، بس في الآخر، كلنا خايفين".

جمع أغراضه، مفاتيحه، علبة سجائره، وارتدى معطفه استعداداً لمواجهة برد الشتاء في الخارج. أطفأ نور المكتب، تاركاً المربعات السوداء غارقة في ظلام الغرفة، تنتظر أسبوعاً آخر لتبوح بما تبقّى من أسرار.

خرج وليد، وصوت خطواته يتردد وحيداً في ممر المستشفى الطويل، يفكر في "آماله" هو.. تلك التي لم تردَّ على رسالته حتى الآن.

دلف "وليد" إلى الكافيتريا بخطوات متسارعة، والتقط كوباً من مشروب ساخن في طريقه لتدفئة أعصابه التي استنزفتها الجلسة الخامسة.

فجأة، تسمَّر مكانه حين وجده جالساً هناك في الزاوية المعتادة.

ضرب وليد جبهته بخفة؛ لقد سقط الموعد من ذاكرته تماماً، ولهذا اضطر هو لحضور الجلسة بأكملها من داخل سيارته.

حيَّاه وليد بابتسامة اعتذار، وسحب كرسيّاً ليجلس أمامه، وهو يفكُّ أزرار معطفه.

لم يمهله وقتاً للراحة، بل بادره، وهو يلوح ببعض الأوراق (أو الهاتف) التي كان يقرأ منها:

"قريت اللي أنت كتبته يا دكتور.. هو ده اللي بتكافئني بيه إني حضرت معاك؟ مطلعني مستفز وابن وسخة!".

انفجر وليد ضاحكاً، ومال بجذعه إلى الأمام قائلاً بصوت ملأ المكان:

"ما أنت كده كده مستفز، وابن وسخة يا رامي.. إيه الجديد؟".

ابتسم رامي رغماً عنه، وقال:

"احمد ربنا إني مقولتش إنك أنت اللي كنت بتديني مجلات السكس زمان وإحنا عيال".

تنهَّد رامي، واختفت الابتسامة تدريجيّاً ليحلَّ محلها شرود مفاجئ، ثم سأل بنبرة جادة:

"ليه أصريت إني أحضر معاك الجلسات دي يا وليد؟".

اعتدل وليد في جلسته، ونظر إلى صديقه بعمق:

"ما أنت صاحب الفكرة من الأساس.. وبعدين أنت محتاج ده يا رامي.. محتاج تسامح".

قاطعه رامي بحدة، وكأنه يهرب من مواجهة حقيقة مؤلمة:

"متكملش.. أنا مسامحه، الله يرحمه.. أنا اللي مش مسامح نفسي".

هزَّ وليد رأسه بهدوء الطبيب، وقال بنبرة حانية:

"لو سيبتني أكمل كنت هقولك محتاج تسامح نفسك.. ده (عُمر) يا رامي، والأعمار بيد الله.. مش بإيدك".

ساد صمت ثقيل للحظات، لم يقوَ رامي على احتماله، فقرر الهروب المعتاد. وقف فجأة وهو يلملم أشياءه:

"سيبك سيبك من الكلام ده.. أنا همشي دلوقتي."

تحرَّك خطوتين، ثم التفت إلى وليد نصف التفاتة، وقال بصوت حاول أن يجعله مرحاً:

"أشوفك الجلسة الجاية يا صاحبي".

رحل رامي، تاركاً وليد وحيداً مع كوب قهوته، ينظر إلى رامي و عيناه تغمرهما الدموع.

(الجلسة السادسة)

عاد "وليد" إلى مكتبه، وقد تبدَّل حاله تماماً عما كان عليه قبل ساعة، لم يعُد ذلك الطبيب المتوتر الذي أدار الجلسة السابقة؛ بل عاد مثقلاً بعبء أشدّ وطأة.

كلمات "رامي" في الكافيتريا لم تكن مجرد عتاب بين صديقين، بل كانت مفتاحاً صدئاً فُتح به باب مُغلق في ذاكرة وليد.

جلس أمام شاشته، ورائحة القهوة التي شربها مع رامي لا تزال عالقة في أنفه، ومعها جملته الأخيرة: "أنا مش مسامح نفسي."

نظر إلى الشاشة المظلمة أمامه، المربعات السوداء بدأت تتجمع واحداً تلو الآخر، حتى يحيى عاد إلي هيئته القديمة مربع أسود، كأنها طيور ليلية تعود إلى أعشاشها.

فكَّر وليد: "كلهم رامي.. كلهم يجلدون ذواتهم بسياط من ندم، وينتظرون غفراناً قد لا يأتي."

ضغط زرَّ البدء، وظهرت صورته أمامهم، ملامحه هادئة، لكنَّ عينيه تحملان نظرة ثاقبة، ومباشرة هذه المرة.

"مساء الخير."

قالها وليد بصوت رخيم، ثم صمت للحظات يتفرَّس في الأسماء أمامه قبل أن يكمل:

"المرة اللي فاتت، كل واحد فيكم حكى عن (الاختيار).. اللحظة اللي قرر فيها يمشّي حياته في اتجاه معين. يحيى اختار الهدوء، جنى اختارت الطموح، آمال اختارت الستر، وريم.. ريم أُجبرت على الفراق."

مال وليد بجذعه إلى الأمام، وشبك أصابعه:

"النهاردة مش هنتكلم عن الاختيار.. النهاردة هنتكلم عن (الفاتورة)، مفيش حاجة ببلاش، وكل قرار خدتوه كان ليه تمن اندفع.. أو لسه بيدفع. مين جاهز يقولنا فاتورته كانت كام؟."

عمَّ صمت ثقيل، أثقل من المعتاد، كان سؤالاً يخشاه الجميع.

ولكن، على غير المتوقع، لم يأتِ الصوت من "ريم" الحزينة، ولا من "يحيى" المتردد.

أضاء المربع الخاص بـ "جنى."

لكنها لم تفتح الكاميرا هذه المرة، اكتفت بالصوت، وكان صوتها مختلفاً تماماً عن نبرة "المهندسة القوية" التي أنهت بها الجلسة السابقة، كان صوتاً زجاجيّاً، مشروخاً، يوشك على التحطم.

"أنا دفعت يا دكتور.. دفعت كاش وفوري."

قالتها جنى بضحكة سخرية مريرة، ثم أكملت:

توجَّهت جنى إلى عملها يوم الأحد، وفي حقيبتها قصاصة ورق صغيرة تحمل رقم هاتف منزلها، وكأنها تحمل "صك الاستسلام" النهائي. دخلت مكتب إبراهيم، وبنبرة خافتة يكسوها خجل مفتعل، ناولته الورقة قائلة بعبارة مقتضبة:

"الموضوع ده تتكلم فيه مع بابا.. ده رقمه."

التقط إبراهيم الورقة، وارتسمت على شفتيه ابتسامة انتصار هادئة. لم يكن من النوع الذي يؤجِّل المعارك أو الغنائم؛ ففي اليوم نفسه، رفع سماعة هاتفه، وبنبرة واثقة ومحترمة، حادث والدها، لم يستغرق الأمر طويلاً لإقناع الأب؛ فالرجل العملي يظهر من صوته، وحُدِّد يوم الجمعة -يوم العطلة- ليكون موعد "جلسة التعارف" الرسمية.

مرَّ بقية الأسبوع ثقيلاً ومختلفاً، سقطت الكلفة الرسمية بينهما داخل جدران المكتب، تحولت طبيعة الحوارات من تعليمات هندسية جافة إلى تلميحات مغلفة بالغزل الصريح من جانب إبراهيم. لم يعد يراها مجرد مهندسة في فريقه، بل أصبح ينظر إليها بعين "المشتري" الذي فحص بضاعته، وقرر امتلاكها.

كانت نظراته فاحصة، جريئة، تتجول في تفاصيلها، وهي تعمل، نظرات تحمل معنى "التملك" المبكر، وكأنه يقول لها وللجميع: "هذه أصبحت لي."

كانت جنى ترتبك تحت ثقل هذه النظرات، لكنها كانت تشعر في أعماقها بزهو الأنثى التي فاز بها الرجل الأقوى.

وأخيراً.. جاء يوم الجمعة.

استيقظ المنزل على حالة طوارئ قصوى، الأم تُشرف على التنظيف والترتيب، والرائحة الشهية تملأ الأرجاء، والأب يجهز نفسه لاستقبال "العريس اللقطة."

وقفت جنى أمام مرآتها، تضع لمساتها الأخيرة، تحاول أن تخفي توترها، وتدفن في أعمق نقطة في ذاكرتها صورة شاب أصلع نحيف يقف الآن في طابور عسكري، يظنُّ واهماً أنها تنتظره.. بينما هي تستعدُّ لتفتح الباب لرجل غيره.

جاءت الجلسة، وكأنها إجراء روتيني سريع لصفقة رابحة، لا جلسة تعارف ومصاهرة. لم يأخذ الأمر وقتاً طويلاً حتى تحولت الأحاديث الرسمية إلى اتفاقات نهائية، ودوى صدى الزغاريد في أرجاء البيت مُعلناً الفرحة.

كان "إبراهيم" حاضراً بكلِّ ثقله، جاهزاً من الإبرة للصاروخ، فأسقط بضربة واحدة كلَّ حجج التأجيل المعتادة.

" لماذا الانتظار؟ الشقة جاهزة، والشبكة حاضرة، والراتب موجود."

وهكذا، صدر الحكم العائلي بضربة مطرقة سريعة: الزفاف خلال ثلاثة أشهر.

حين سمعت "جنى" المدة، شعرت ببرودة تسري في أطرافها رغم حرارة الزغاريد حولها. تنهدت بعمق، تنهيدة طويلة ومكتومة.

"ثلاثة أشهر؟."

بدا الرقم ضئيلاً بطريقك مرعبة، كانت تظنُّ أنها ستملك وقتاً أطول، ربما خطبة لعام أو ستة أشهر على الأقل، فترة انتقالية تسمح لها بأن تودع ماضيها ببطء، وأن تتعود إلى حاضرها الجديد.

لكنَّ القطار كان أسرع مما تبدو عليه الحياة. شعرت وكأنها وضعت قدمها في تيار مياه جارف؛ لا تملك خيار العوم عكسه أو حتى الوقوف لالتقاط الأنفاس.

الأمر أصبح واقعاً، والموعد تحدد. في غضون تسعين يوماً، ستكون زوجة لهذا الرجل، وستغلق الباب خلفها إلى الأبد على كلِّ الاحتمالات الأخرى.

في الليلة السابقة، جلست "جنى" أمام مكتبها تحاول أن تكتب رسالة وداع أخيرة لـ "هاني". أرادت أن تعطيه الورقة عندما تراه، ثم تنصرف دون أن تنطق بحرف، ظانَّة أنَّ الحبر قد يحمل عنها وزر المواجهة.

لكنَّ يدها كانت ترتعش بشدة، والكلمات كانت تأبى الخروج. كلما خطت جملة: "آسفة"، "غصب عني"، "النصيب".. شعرت بسخف المبررات وبشاعة الحقيقة. مزقت ورقة تلو الأخرى، حتى امتلأت سلة المهملات بفتات العشرين ورقة الممزقة.

في النهاية، ألقت القلم بيأس. أدركت أنها لا تملك الشجاعة لتوثيق خيانتها على ورق، وقررت أن ترحل في صمت، تاركة المشهد الختامي للمصادفة وحدها.

وفي اليوم التالي، كان "هاني" يقف في مكانه المعتاد، يمسح حبات العرق عن جبينه، وقد نال منه التعب والانتظار.

مرت حافلة الشركة أمام عينيه، فراقبها بلهفة، لكنها لم تتوقف، ولم تنزل منها حبيبته. انقبض قلبه، وظنَّ أنها ربما مريضة أو لم تذهب إلى للعمل اليوم. تنهَّد بضيق، وهمَّ بالرحيل يجرُّ أذيال الخيبة.

لكنَّ صوت محرك سيارة حديثة استوقفه، التفت ليرى سيارة ملاكي فارهة تقف حيث يجب أن تقف الحافلة.

فُتح الباب، ونزلت "جنى".. لكنها لم تكن وحدها.

نزل من مقعد السائق رجل يفيض ثقة وقوة، يرتدي بدلة أنيقة، وتصرفاته تشي بملكيته للموقف، وللمرأة التي بجانبه.

تجمَّد هاني في مكانه، واتسعت عيناه بصدمة ألجمت لسانه. رأى "جنى" تنزل بصحبة خطيبها، ورآه يسير بجانبها نحو مدخل بيتها بخطوات ثابتة.

التقت الأعين للحظة واحدة.. لحظة بدت كالأبد.

نظرت إليه جنى نظرة خاطفة، نظرة "اعتذار" صامت، عاجز، وبارد في آن واحد. لم تتوقف، لم تحاول الشرح، بل أشاحت بوجهها، وأكملت طريقها بجوار الرجل الآخر، تاركة هاني خلفها، واقفاً في الشارع كتمثال منهار، يشاهد حلمه يتبخر ويدخل بيت رجل آخر.

جاء يوم الزفاف صاخباً، براقاً، ومزدحماً بالوجوه.

كانت "جنى" في غاية فرحتها، تشعُّ جمالاً وثقة.

خلال الأشهر الثلاثة الماضية، استبدلت قلقها بشعور دافئ بالأمان بجوار "إبراهيم"، اعتادت على وجوده الطاغي، على كلماته المعسولة التي تدغدغ أنوثتها، وحتى على لمساته الجريئة التي كانت تبدو "عفوية" في البداية، ثم تكررت حتى أصبحت لغة خاصة بينهما.

في القاعة المكتظة بالفساتين اللامعة، والبدلات الرسمية وصخب الموسيقا، كانت جنى ترقص في حضن عريسها، ضاحكة، سعيدة، غائبة عن العالم، لكن هناك، في زاوية بعيدة، كانت هناك عينان تراقبان المشهد بقلب يتمزّق بصمت.

كان "هاني" واقفاً يراقبها، وهي تذوب سعادةً مع رجل آخر. كانت تلك هي "الصدمة الأخيرة" التي يحتاج إليها لكي يقتلعها من ذاكرته إلى الأبد؛ أن يراها لا تفتقده، بل تعيش أجمل لحظاتها من دونه.

وبينما هو غارق في انكساره، شعر بيد ثقيلة توضع على كتفه. التفت ليجد "دكتور سعيد" يقف بجانبه، ينظر إلى المسرح بنظرة خبير ملَّ من تكرار السيناريوهات، وقال بصوت خافت ومحايد:

" -هتعدي يا بطل.. متقلقش. المشهد ده بيتكرر قدامي يجي تلات مرات في كل دفعة على الأقل. "

مرَّت السنوات سريعة، رتيبة، وماكرة.

من الخارج، كان المشهد يبدو كـ "الكتالوج": بيت مثالي، زوج ناجح يصعد درجات السلم الوظيفي بسرعة الصاروخ، وزوجة مضحية قررت بعد الولادة أن تنسحب من حلبة الطموح لتعيش لابنها وزوجها.

تحوَّلت "جنى" المهندسة الواعدة إلى ظلٍّ يدور في فلك "إبراهيم". كانت تهتم به اهتمامًا مبالغًا فيه، تحاصره بالرعاية والأسئلة والتفاصيل، وهو ما كان يسميه إبراهيم بضيق شديد: "الخنقة."

لم يعُد إبراهيم يرى فيها تلك الفتاة التي كان يطاردها، بل صار يرى فيها "وظيفة منزلية": وجبة ساخنة، وفراش جاهز للمضاجعة آخر

الليل لتفريغ طاقة العمل، ثم نوم عميق.

سارت الحياة على هذا المنوال البارد، حتى جاءت تلك الليلة.

كان إبراهيم في الحمام، وترك هاتفه الجديد مضيئاً على الطاولة بجوار السرير.

دفعت غريزة الأنثى "جنى" لتنظر إلى الشاشة التي أضاءت بإشعار، فتسمرت عيناها..

لم يكن إشعاراً من العمل، ولا رسالة من صديق..

رأت رقم أنثى، واسماً لا تعرفه، يظهر بوضوح على الشاشة.

***

لم يكد صدى صوت "جنى" يختفي، وهي تحكي عن رسالة الخيانة، حتى جاء الردُّ من المربع الذي اعتاد الجميع على تردده وضعفه. هذه المرة، كان صوت "يحيى" حاداً كسكين، يقطر وجعاً وسخرية:

"فاتورة إيه اللي دفعتيها؟ أنتي حاسبتي من جيبي أنا."!

ساد صمت مكهرب، ولأول مرة منذ بدأت هذه الجلسات، أضاء مربعان في آن واحد.

فُتحت الكاميرات.

ظهر "يحيى" بملامحه الشاحبة، وعينيه اللتين تسكنهما انكسارات

السنين، وفي المقابل، ظهرت "جنى".. سيدة كهلة، ملامحها قاسية، صبغت شعرها بلون فاقع لا يناسب سنها، وكأنها تعاند الزمن، وعيناها تلمعان بنظرة تحدٍّ لا انكسار.

نظرت جنى عبر الشاشة إلى يحيى، ولم تهتزَّ، لم تبكِ، ولم تعتذر، بل ارتسمت على وجهها ملامح الصدمة من "بجاحة" ابنها، وقالت بصوت حادٍّ، وهجومي:

"أنت بتكلم أمك كدة يا يحيى؟ قدام الناس؟ دي آخرة تربيتي وتضحيتي عشانك؟."

قاطع "وليد" الحوار المتوتر بين يحيى وأمه، وأشار إلى "ريم" لتدخل على الخط، ربما لتهدِّئ من روع الموقف.

أضاء مربع "ريم" و ظهرت بوجهها، وبدأت تسرد ما حدث بعد رحيل محمود، وكأنها تزيح الستار عن سنوات من الجليد:

***

"مرَّت السنوات ثقيلة، بطيئة، وكأنَّ عقارب الساعة كانت تتعمد أن تدهس قلبي في كلِّ دقة. حاولت خلالها أن أتتبع أثره، بحثت عنه في الوجوه العابرة، وفي رنات الهاتف التي لا تجيب. كانت محاولاتي مجرد صرخات في وادٍ سحيق، لا يرجع إليَّ سوى صدى خيبتي."

تحدَّثت عن هروبها إلى العمل، وصعودها السريع الذي لم يكن سوى "تخدير" للألم، ثم جاءت الضربة القاضية: "لقد سافر". رحل محمود إلى الخليج، وترك الحارة والزمن والحلم.

"أمام هذا الرحيل النهائي، وحصار الأهل، وتلميحات أمي بأن (القطار يفوت)، خارت قواي. وافقت على استقبال (العريس) القادم، ليس اقتناعاً، بل استسلاماً، وافقت، وفي داخلي أمل أحمق، سيناريو سينمائي كنت أمنِّي به نفسي: بمجرد أن يسمع بخبر خطبتي، ستشتعل غيرته، سيعود قاطعاً البحار ليخطفني من الجميع".

ضحكت ريم بمرارة، وهي تكمل:

"لكنَّ السينما كذبة.. والواقع بارد. تمت الخطبة، ومرت الأيام، ولم يظهر الفارس، البحر بقي هادئاً، وهو بقي في منفاه، وأنا ابتلعت خيبتي. كان عليَّ أن أتعايش مع هذا (الغريب) الذي اقتحم حياتي برخصة شرعية، كان شخصاً نمطيّاً، حديثه روتيني، لا هو ثرثار فيزعجني، ولا هو رومانسي فيحرجني بكذب مصطنع. كان (فقره العاطفي) هو ميزته الوحيدة؛ بروده كان رحمة لقلبي المحترق."

سردت تفاصيل يوم الزفاف الذي كان أشبه بمراسم وداع، ودموعها مع أمها في الغرفة، ثم الحياة الزوجية التي كانت عبارة عن صراع أخلاقي يومي بين جسد حاضر مع زوج، وقلب مسافر مع حبيب، وكيف كان "تأجيل الإنجاب" هو الهدنة الوحيدة.

ثم انتقلت "ريم" فجأة من نبرة الحكي الهادئة إلى نبرة حادة ومباشرة، وهي توجِّه كلامها إلى الكاميرا:

"هو كان شايف إن التلت سنين جواز مروا بسلام وهدوء.. بس الحقيقة إن بيتي كان مستباح، حماتي معاها المفتاح، بتدخل وتخرج وقت ما تحب، تفتح التلاجة وتنتقد أكلي وشربي ونظافتي، حتى لما خلفت بعد تلت سنين، ابني كان بيتشد من حضني عشان يتربى على إيد حد تاني، حتى اسمه! حماتي كانت عايزة تسميه (هاني)، وأنا حاربت عشان أسميه اسم تاني.. كل ده هستحمله إزاي وليه؟."

هنا، وللمرة الثانية في هذه الجلسة المجنونة، قاطعها صوت مألوف.. صوت خرج من مربع "يحيى" ليصرخ فيها بغضب المظلوم:

"طبعاً مش هتستحملي.. مش عشان أمي كانت صعبة، لأ.. عشان أنتي عمرك ما حبتيني أصلاً."!

نظرت ريم إلى يحيى عبر الشاشة، ولم تنكر، بل ردَّت ببرود قاتل، برود امرأة قررت أن تحرق المراكب:

"هحبك إزاي يا يحيى؟ هحبك إزاي وأنت عمرك ما حبيت حد غير أمك؟ أنت مكنتش متجوزني أنا.. أنت كنت متجوز صورة، ديكور يكمل الشكل الاجتماعي. أنت كنت (ظل) الست الوالدة في بيتي.. وعشان كدة، كان لازم نتطلق."

لم يحتمل "رامي" هذا الكم من الدراما العائلية المتشابكة، فتدخل بصوته الساخر ليكسر حدة الموقف قبل أن يتحوَّل إلى ساحة دماء:

"يا دكتور إلحق.. أنت مجمع العيلة كلها هنا! ده إحنا لو في مسلسل هندي مش هتطلع كده.. افصل بينهم والنبي قبل ما يخلصوا على بعض."

تدارك "وليد" الموقف بسرعة، وفرض "الصمت الإجباري" (Mute) على الجميع، ثم أعطى الإذن لـ "أمال" لتبدأ، لعل قصتها تأخذهم بعيداً عن هذا الاشتباك العائلي.

أضاءت أمال شاشتها، وبدأت تحكي بصوت يرتجف من ثقل الذاكرة:

"في الشهور الأولى، كانت الحياة مثالية لدرجة لا تصدق.. أو ربما لدرجة (الممل). صلاة، زيارات عائلية، وبيت هادئ يملؤه السكينة. كنت عايشة في الجنة اللي طلبتها.. بس اكتشفت إنها جنة بلا روح."

مرَّ عامان على الزواج، وأمال الآن في شهرها التاسع، تحمل في أحشائها طفلها الأول، وتحمل في قلبها ثقلاً لا يراه أحد.

أدركت متأخرة أنَّ للاقتران برجل طموح "وقور" ضريبة باهظة. قضت حملها سجينة الجدران، فزوجها لا يعود إلا متأخراً، مفرغاً من الطاقة، يكتفي بكلمات مقتضبة، وقبلة روتينية باردة على الجبين، ثم يغرق في النوم.

في غمرة هذا البرود، بدأ الشيطان يهمس..

وجدت نفسها تشتاق إلى تلك القبلات "الأخرى"؛ المسروقة، المحرمة، التي كان لها طعم الخطر والمغامرة، كانت تنتفض لتطرد الفكرة:

"أعوذ بالله من الشيطان.. أنا في نعمة يتمناها غيري."

لكنَّ الملل كان أقوى في لحظة ضعف قاتلة، أمسكت هاتفها واستسلمت للفضول، بحثت عن "اسمه".. ودخلت تتلصص على عالمه.

صور في الساحل، عضلات، سهرات، وضحكات.. هو يعيش شبابه بالطول والعرض، بينما هي تنتظر المخاض وحدها.

سرحت في تفاصيل صورة له.. وفي غفلة من وعيها، خانتها إصبعها.

نقرت الشاشة بالخطأ، ليظهر "القلب الأحمر" اللعين تحت الصورة!

انتفضت كمن مسَّها ماس كهربائي، سحبت "الإعجاب" في جزء من الثانية، وألقت الهاتف، كأنه جمرة ملتهبة.

تسمَّرت مكانها، وقلبها يقرع طبول الرعب:

"شافه؟.. يارب استر.. يارب يكون مش ماسك الموبايل."

لكنَّ القدر كان لها بالمرصاد، لم تمر دقيقة حتى أضاء الهاتف كعاصفة، كان كالذئب المتربص، لم يصدِّق أنَّ الفريسة لوَّحت له.

توالت الرسائل كطلقات سريعة:

"إزيك؟ اختفيتي فجأة.. بس كنت عارف إنك هترجعي."

"حتى لو اتجوزتي.. أنا ميتنسيش."

"وأنتي كمان.. مفيش واحدة ملت مكانك زيك."

قرأت أمال الكلمات، وكلُّ حرف كان يجلد ضميرها.

شل الرعب تفكيرها، وبأصابع مرتجفة ضغطت "Block"، وكأنها تغلق باب الجحيم.

ألقت الهاتف، وانهارت تبكي، تداخلت عليها الأوجاع؛ ألم الرحم المثقل، ورعب الفضيحة، وندم لا ينتهي.

في السادسة صباحاً..

لم يستيقظا على زقزقة العصافير، بل على رنين هاتف الزوج الذي شقَّ سكون الفجر كإنذار شؤم.

مدَّ يده بتثاقل ليرد.. لكنَّ الصوت الذي انبعث من السماعة طيّر النوم من عينيها فوراً.

كان صوتاً أنثوياً تعرفه أمال جيداً.. صوت "صديقتها القديمة"..

الأفعى التي ورثت مكانها.

سمعت أمال الكلمات تخرج من السماعة كالسم الزعاف:

"صباح الخير يا عريس.. أنا بس بوعيك عشان متبقاش نايم على ودانك، مراتك المصونة، الشيخة اللي أنت فرحان بيها.. بتكلم حبيبها القديم، ولو مش مصدقني.. شوف السكرين شوت اللي بعتهالك دلوقتي."

اهتزَّ الهاتف في يده معلناً وصول الدليل.

صورة لرسائله، وهو يتغزل بها، واسمها يظهر بوضوح في قائمة من شاهدوا قصته.(Story)

أغلقت الخط، وساد الغرفة صمت جنائزي مرعب.

نظرت أمال إلى ظهر زوجها، تتوقع انفجاراً، صراخاً، ضرباً.. لكنه لم يفعل.

نظر إلى الهاتف طويلاً، ثم التفت إليها ببطء.. لم تكن نظرة غضب، بل كانت نظرة "فراغ". نظر إليها وكأنه يرى سراباً. انطفأت في عينيه لمعة الانبهار، وسقطت هالة "الزوجة الصالحة" وتحطمت إلى الأبد.

دون كلمة واحدة، قام من السرير، ارتدى ملابسه بهدوء آلي مرعب، زرَّ قميصه، ووضع عطره، وأخذ مفاتيح سيارته.

حاولت أمال أن تنطق، أن تبرر، أن تحلف..

"والله ما حصل.. دي غلطة.. اسمعني أبوس إيدك."

لكنَّ صوتها مات أمام جدار صمته الجليدي.

خرج، وأغلق الباب خلفه بهدوء.. وكان ذلك الهدوء أشدَّ قسوة من ألف صفعة.

ما إن غادر، حتى انفجر الألم الحقيقي في أحشائها، لم يكن ألم الخوف فقط.. بل ألم الولادة.

سقطت على الأرض تصرخ، لا مجيب لها سوى الجدران التي شهدت فضيحتها الصامتة.

زحفت نحو الباب، واستجمعت قواها لتصرخ مستغيثة بالجيران.

في عمله، كان الزوج يجلس أمام مكتبه يحدق إلى اللاشيء، يُعيد ترتيب شريط حياته معها، يكتشف "الخدعة" في كلِّ تفصيلة صدَّقها يوماً.

لم يقطع حبل أفكاره السوداء سوى رنين هاتفه مرة أخرى.. هذه المرة من جارته:

"إلحق يا أستاذ.. المدام بتولد، والإسعاف بتنقلها."!

***

الجميع يشعر بانقباض القلب، لا أحد يجرؤ على التعليق على مأساة كهذه، حتى "رامي" ابتلع سخريته، وصمت.

أدرك "وليد" أنَّ الجلسة تحولت إلى غرفة طوارئ نفسية مفتوحة، وأنَّ الدماء تنزف من الجميع بلا توقف.

حاول أن يتماسك، نظر إلى الأسماء المتبقية، ووقع بصره على "ليلى."

كانت ليلى قد توقفت في المرة السابقة عند قرارها بالسفر إلى الإسكندرية لمواجهة "المبتز"، وإنهاء الكابوس.

وجَّه وليد الحديث إليها بصوت هادئ ومشجع، لعلَّ في قصتها نهاية مختلفة، أو على الأقل.. فاتورة مدفوعة تريح القلب:

"ليلى.. الدور عليكي. سيبناك المرة اللي فاتت وأنتي رايحة إسكندرية تقابلي الشخص ده عشان تخلصي من تهديده.. إيه اللي حصل هناك؟ ودفعتي التمن إزاي؟"

***

كان نسيم الإسكندرية البارد يعبث بخصلات شعرها الأشقر، وتفوح منها رائحة عطر رقيق يغالب رائحة اليود والبحر. بأطراف أصابع مرتجفة، كانت تزيح خصلة متمردة عن وجهها، بينما يجلس هو أمامها، يرمقها بنظرة "متفحصة" غير مريحة، تجردها من هدوئها.

مال نحوها، وقال بنبرة لزجة:

"مكنتش أعرف إنك جريئة، وهتسمعي الكلام وتيجي إسكندرية مخصوص."

حاولت أن تجمع شتات صوتها:

"أنا جيت عشان كنت عايزة أتكلم معاك في حاجة ضروري."

قاطعها بابتسامة صفراء، وهو يتأمل وجهها:

"يا ستي سيبك أنتي من الكلام ده.. شكلك على الطبيعة أحلى بكتير من الصور."

ارتبكت ليلى، ولجم لسانها، حتى أنقذها صوت النادل يقطع سكون الطاولة:

"تشربوا إيه؟."

همست، وهي تنظر إلى الطاولة:

"هوت شوكلت."

"وأنا شاي."

ما إن رحل النادل، حتى استعادت ليلى شجاعتها، وقررت أن تُنهي هذه المهزلة:

"أنا شايفة إن كفاية لحد كده."

رمقها بنظرة واثقة، كمن يملك أوراق اللعبة كلها:

"كفاية إيه بس؟ إحنا لسه بدأنا؟."

ثم أشار بيده نحو الشارع:

"إيه رأيك بعد ما نخلص شرب.. نطلع نركب العربية اللي برا دي؟ نتمشى شوية، وعلى الأقل نتكلم براحتنا بعيد عن دوشة الناس."

نظرت "ليلى" عبر زجاج الكافية حيث أشار، لتجد سيارة متهالكة تقف ببؤس، يبدو أنَّ السنين قد أنهكتها تماماً.. الطلاء مقشر، والهيكل يحمل ندوب الزمن، وضربات الحوادث، شيء لا يشبه مظهره المتأنق، والمفتعل بأي حال.

عقدت حاجبيها باستغراب وشك:

"بس أنت قايلي إن معندكش عربية."!

ردَّ بسرعة، وبنبرة تحمل استنكاراً مصطنعاً، وكأنَّ سؤالها إهانة لرجولته:

"معقولة يعني تنزلي إسكندرية، وأركِّبك مواصلات؟ دي عربية واحد صاحبي.. استلفتها منه النهاردة مخصوص عشانك."

ترددت ليلى.. كان جرس الإنذار يدقُّ في رأسها، لكنَّ رغبتها في "إنهاء الأمر" والوصول لاتفاق يخلِّصها من كابوس الصور تغلبت على صوت حذرها.

تنهدت بقلّة حيلة، وقالت بصوت خافت، كان بمنزلة توقيع على وثيقة ندمها الأبدي:

"امممم..... تمام."

وهنا.. انهار السد.

توقَّفت ليلى عن السرد، وارتفع صوت بكائها فجأة ليتحول إلى نوبة انهيار حقيقية، لم يكن بكاءً عاديّاً، كان صوت شيء يتحطم بعنف، صوت ندم متأخِّر يمزِّق الحناجر، وكأنها عادت إلى تلك اللحظة، وتتمنى لو قطعت لسانها قبل أن توافق.

لم يتحمَّل "وليد".. صدقاً لم يتحمل. كان صوت بكائها يضرب وتراً حساساً ومؤلماً في أعماقه، يذكِّره بقلة حيلة البشر أمام خطاياهم. همَّ أن يتدخَّل ليهدِّئها، لكنَّ صوتاً آخر اخترق المشهد.. صوتًا كان أشدَّ رعباً من البكاء.

قاطعهم "عبد المجيد" بنوبة سعال شديدة جداً..

كحَّة مخيفة، حشرجة صدر يضيق عليه الهواء. ظهر الرجل العجوز في الكاميرا، وهو يضع يده على قلبه بألم، ووجهه يحتقن بالدماء، وبجانبه ظهرت تلك "القطة" التي سمح لها بالدخول اليوم، تموء بفزع، وتتمسَّح في ذراعه، كأنها تستغيث.

وفي لحظة تجمَّد فيها الزمن، انطلق صوت من المربع المجاور.. صوت مألوف، لكنه مشروخ بالفجيعة.

انفجر صوت "رامي" يصرخ بكلِّ ما في رئتيه من رعب:

"باباااااااااااا.."!!

جلس "وليد" على حافة سريره في غرفة المستشفى البيضاء الباردة، يبكي بحرقة صامتة، يهتزّ جسمه مع كلّ شهقة مكتومة. فُتح الباب ببطء، ودخلت "ريم" شاحبة الوجه، تلمست طريقها إليه كمن يمشي فوق زجاج مكسور.

جلست بجواره، وضمّت رأسه إلى صدرها بحنان أمومي، سائلة بصوت مرتجف:

"بتعيط ليه يا حبيبي؟ إيه اللي حصل لكل ده؟."

رفع وليد وجهه المبلل بالدموع، وقال بصوت متحشرج يقطر ألماً:

"أنا السبب.. أنا السبب في كل اللي حصلهم يا ريم."

نظرت إليه بذهول:

"أنت؟ أنت كان في إيدك إيه ومعملتوش؟ أنت دكتورهم يا وليد، مش خالقهم."!

هزّ رأسه بعنف، كأنه ينفض عن نفسه براءة لا يستحقها:

"لا يا ريم.. أنا مش بس دكتور، أنا الجلاد اللي جمعهم كلهم في دايرة واحدة، أنا أذيتكم.. أذيتكم كلكم واحد واحد.. حتى أنتي."

صمت لحظة يلتقط أنفاسه، ثم أكمل باعتراف يخرج لأول مرة:

"كفاية إني أنا اللي كنت السبب إنك تشوفي (محمود) تاني.. أنا اللي صممت أتجوز أخته، وجبته قدام عينيكي العمر كله."

❊❊❊

في قاعة المناسبات المزدحمة بالمهنئين، حيث عائلتها وعائلته تجتمعان للاتفاق على نسب جديد بين العائلتين، تجمد الزمن فجأة.

رأته، كان جالساً هناك، بملامحه التي نضجت، وزادها الزمن وقاراً وحزناً. خطُّ الشيب بدأ يغزو فوديه، لكنَّ عينيه.. عينيه كانتا كما هما، تحملان النظرة نفسها التي تخترق روحها، نظرة تقول بصمت موجع: "أنا ما زلت هنا.. وأنتِ هناك."

لكنَّ الطعنة الحقيقية لم تكن في وجوده، بل فيمن تجلس بجانبه.

امرأة أخرى، يقال إنها خطيبته، تأملتها ريم بذهول ممزوج برعب خفي.. كانت هادئة الملامح، رقيقة.. شعرها، التفاتتها، حتى طريقة ابتسامتها الخجولة.

إنها تشبه ريم! تشبهها قليلاً، أو ربما كثيراً!

أدركت ريم الرسالة بوضوح مؤلم كحدّ السكين: هو لم يبحث عن امرأة أخرى ينسى بها الماضي، هو بحث عن "نسخة" من الماضي ليعيش معها المستقبل، هو يحاول استحضار "ريم" في ملامح امرأة غريبة.

في تلك اللحظة، عادت ريم إلى نقطة الصفر، سقط قناع النسيان الذي صنعته لسنوات، وأيقنت الحقيقة المرة: هذا الحبُّ ليس جرحاً يلتئم مع الوقت، بل هو "عاهة مستديمة" في الروح.. لا شفاء منها، ولكن.. يُتعايش معها كطرف مبتور.

***

مسحت ريم دمعة فرَّت من عينها، وحاولت أن تخفف عنه:

"بس ده عمر وعدَّى يا وليد.. والجواز قسمة ونصيب، وأنت مكنش ليك ذنب، كنت هتعرف منين لما شوفتها في درس المسجد إنها أخت محمود؟."

نظر إليها وليد بعينين حمراوين، وفجَّر قنبلته:

"لا يا ريم.. مكنش صدفة، أنا عرفت إنها أخته لما روحتله زمان عشان أنهي علاقتكم ببعض.. هي اللي فتحتلي الباب يومها."

شهقت ريم، وتراجعت إلى الخلف خطوة، بينما انهار وليد في حضنها يبكي كطفل ضائع، يطلب غفراناً يعرف أنه لن يناله.

في تلك اللحظة، دُق باب الغرفة.

مسح وليد دموعه بسرعة، وأذن للطارق.

دخل "دكتور شريف"، بدا وكأنَّ الزمن قد مرَّ عليه بضعف سرعته

المعتادة؛ اجتاحه الصلع نهائياً، أما وجهه فقد غزاه الشعر الأبيض حتى حواجبه الكثة.

ابتسم شريف ابتسامة باهتة:

"إزيك يا بطل.. كنت بتكلم مين؟."

أشار وليد بيده المرتعشة:

"دي أختي ريم.. سلّمي على دكتور شريف يا ريم."

ثم التفت إليها بعينين ترجوانها الرحيل:

"ممكن تسبيني مع دكتور شريف شوية؟."

جلس شريف أمام تلميذه القديم، ونظر إليه بعمق:

"أنا سمعت وأنت بتكلم ريم.. وعرفت ليه محمّل نفسك ذنبها. بس ليه وقفت؟ كمل.. ليه محمل نفسك ذنب الباقي؟ إيه اللي حصل؟."

أغمض وليد عينيه، وبدأ يسرد الكابوس:

"مقدرتش يا دكتور.. مقدرتش أحكيلهم الحقيقة في الجلسات."

تنهَّد بوجع، وأكمل:

"رامي.. رامي انغمس في الحياة برة مصر، بين عربدة ونجاح وسفر، رامي كان صديقي الوحيد بالوراثة، لأن أبويا كان صديق عمر (عبد المجيد)، ولما عبد المجيد تعب، أبويا فضل يطلب مني أزوره

وأطمن عليه.. أسبوع ورا أسبوع وأنا أسوف وأأجل، لحد ما روحت."

ارتجف صوت وليد، وهو يتذكر:

"ما إن قرّبت من باب شقته.. شميت الريحة، ريحة الموت لما بيعفن يا دكتور. قعدت أرزع ع الباب محدش فتح، جبت ناس من الشارع وكسرنا الباب.. ودخلت."

انفجر وليد من البكاء مرة أخرى، صوته يتقطع:

"كانت الجثة بدأت تتحلل.. والقطة.. القطة كانت بتاكل فيها من الجوع. أخفيت بشاعة المنظر عن رامي لما رجع، وحتى عن أبويا اللي مات بعدها بأسبوع من الحسرة.. شلت السرّ، والشعور بالذنب لوحدي."

وضع شريف يده على كتف وليد ليهدئه، وسأله بصوت خافت:

"وأمال؟"

***

تعافت "أمال" من آلام الولادة الجسدية، لكنَّ روحها كانت لا تزال تنزف. بدأت تستعيد نشاطها في تنظيف البيت، محاولةً غسل الكآبة التي خيمت عليه. وصلت إلى باب "غرفة المكتب"، تلك الغرفة التي أصبحت مؤخراً "منطقة محرمة"، يغلقها الزوج على نفسه بالساعات.

دفعت الباب، فصدمتها رائحة الدخان الكثيفة، لم تكن غرفة رجل وقور يهتمُّ بصحته، بل كانت أشبه بـ "وكر" لشاب عازب يعيش حالة ضياع، ملابس ملقاة بإهمال، زجاجات مياه غازية فارغة، ومنفضة سجائر تفيض بأعقاب محترقة.. منذ متى وهو يدخن؟

بدأت تجمع الملابس الملقاة بآلية، وتحت كومة من القمصان، لمحت ظرفاً طبيّاً يحمل شعار معمل تحاليل شهير.

سحبته بفضول.. وفتحت الورقة.

للحظة توقف الزمن، الحروف رقصت أمام عينيها قبل أن تستوعب الكارثة:

"تقرير تحليل بصمة وراثية - (DNA) إثبات نسب."

نظرت إلى التاريخ.. إنه يوم ولادتها نفسه!

بينما كانت هي تصرخ من ألم الطلق وحدها، كان هو يسحب عيّنة من دم الطفلة ليطمئن أنها ابنته.

تجمَّدت الدماء في عروقها.. هل وصل به الشك والاحتقار لهذا الحد؟

قررت ألا تبكي. جلست على الكرسي وسط الفوضى، والورقة في يدها كسلاح أخير.

حين دخل ورآها، لم يرتبك. كان وجهه شاحباً وبارداً كتمثال من شمع.

رفعت الورقة في وجهه، وسألت بصوت يرتجف غضباً:

"إيه ده؟."

ردَّ بفتور قاتل، وهو يخلع جاكيته، ويرميه فوق الفوضى:

"تحليل عادي.. بتأكد إنها بنتي."

صرخت فيه بقهر:

"وأنت مش متأكد؟ للدرجة دي شايفني رخيصة؟."

نظر إليها نظرة خاوية، خالية من أي مشاعر، وقال بهدوء مستفز:

"ومبقاش متأكد ليه؟ مش يمكن اللي حصل زمان.. حصل تاني بعد الجواز؟ اللي يخون ثقة أهله سنين ويعيش بشخصيتين، سهل عليه يخون أي حد."

"قصدك إيه؟."

اقترب منها خطوة، وبنبرة حاسمة كقاضٍ يقرأ الحكم النهائي:

"أنا كلمت الرقم اللي كلمني.. (صاحبتك)، وعرفت منها كل حاجة، كل تاريخك، كل خروجاتك، كل كدبة عيشتيها عليا ومثلتِ فيها دور الشيخة."

صمت للحظة، ثم أكمل وهو يشير إلى البيت بأكمله:

"أنا مش هعمل أي حاجة، مش هطلقك، ولا ههز صورتك قدام أخوكي وأهلك، ولا هفضحك.. عشان خاطر (بنتي) بس، وعشان متترباش بعيد عني."

ثم نظر في عينيها مباشرة، وألقى كلمته الأخيرة التي حوَّلت حياتها إلى سجن أبدي:

"بس من اللحظة دي.. حياتنا كزوجين انتهت، أنتي في أوضة وأنا في أوضة، منتجمعش، منتكلمش، وملناش دعوة ببعض.. وكلامنا يكون في أضيق الحدود قدام البنت عشان نفسيتها.. مفهوم؟."

قالها، وأعطاها ظهره، تاركاً إياها غارقة في ورقة التحليل ودموع الخزي، سجينة في بيت الزوجية الذي أصبح زنزانة انفرادية.

***

قام وليد يمشي في الغرفة جيئة وذهاباً كالمجنون، وهو يكمل اعترافاته:

"ليلى كبرت في بيت ميت.. أم مكسورة الجناح ومذلولة، وأب غايب حاضر، بيعاملهم كأنهم نكرة. ليلى هربت من جحيم برودي.. دوّرت على أي اهتمام بره البيت، دوّرت على أي حد يقولها كلمة حلوة أنا بخلت بيها عليها".

توقف أمام الشباك، واستند برأسه إلى الزجاج البارد:

"لحد ما راحت إسكندرية.. راحت تقابل واحد موهمها بالحبّ. خدها في طريق مقطوع.. ولما رفضت تسلم له نفسها، حاول يغتصبها بالقوة.. قاومته، فخبط دماغها في التابلوه بكل عزمه."

التفت لشريف، والدموع تغرق وجهه:

"ليلى وشها اتشوه يا دكتور.. جالها عاهة مستديمة، بنتي الجميلة اللي كنت بتكبر عليها، دفعت تمن قسوتي على أمها .

سقط وليد على ركبتيه أمام شريف، منهاراً تماماً:

"أنا دمرت أختي ريم لما جوّزتها لواحد مبيحبهاش، ودمرت مراتي أمال لما ذلتها بماضي هي تابت عنه، ودمرت بنتي ليلى لما سبتها فريسة للديابة، وحتى رامي... رامي اللي أبوه مات، مات بسببي أنا لأني اتأخرت عليه."

ساد صمت طويل في الغرفة، لم يقطعه سوى صوت أنفاس وليد المتهالكة.

نظر دكتور شريف إلى تلميذه القديم، ولم يجد في جعبته نصيحة طبية، أو كلمة مواساة. الحالة تجاوزت الطب، وتجاوزت الكلام.

اقترب منه، وربت على كتفه بقلة حيلة، ثم قال جملة واحدة قبل أن يغادر الغرفة، ويتركه لمصيره:

"أنت مش محتاج دكتور يا وليد.. أنت محتاج معجزة."

مسح وليد وجهه بكفيه المبتلتين، ورفع بصره باحثاً عن مواساة أخيرة من أستاذه.. لكنَّ الكرسي كان فارغاً.

تسمَّرت عيناه على المقعد الجلدي الذي لم يكن عليه أثر لجلوس أحد.

تلفَّت حوله في الغرفة.. لا يوجد "دكتور شريف."

هل كان يتحدث لنفسه؟ هل كان يعترف لسراب؟ أو أنَّ شريف رحل، وترك تلميذه يغرق وحده؟

انفجرت من صدره ضحكة.. ضحكة قصيرة، مبحوحة، سرعان ما تحولت إلى قهقهة هستيرية عالية، امتزجت بشهقات بكاء حارق، كان يضحك على عقله الذي تلاعب به، ويبكي على روحه التي تلاشت.

وفجأة.. انفتح باب الغرفة ببطء، ودون صوت.

دخل رجلان يرتديان البياض، وجهان محفوران في ذاكرته حدَّ الألم.

والده.. وعمي عبد المجيد.

كانا يسيران بخطوات ثابتة، لا يلامسان الأرض. اقتربا منه، لم ينطقا بكلمة عتاب واحدة، بل فتحا أذرعهما، واحتضناه بقوة.. بقوة شديدة تكاد تكسر ضلوعه.

شعر ببرد يسري من أجسادهم إلى نخاعه، لكنه تشبَّث بهم، يدفن رأسه بينهما كالطفل، يشمُّ رائحة الماضي، رائحة الزمن الذي كان فيه بريئاً.

ثم فجأة، ابتعدا عنه، واستدارا ليغادرا بالهدوء نفسه، تاركين إياه يمدُّ يده في الفراغ، صارخاً بلا صوت.

لم يكد طيفهما يختفي، حتى اقتحمت "أمال" الغرفة.

لم تكن أمال المنكسرة، بل كانت عملاقاً من الغضب.

اقتربت منه ووجهها يشتعل، وبدأت تصرخ فيه.. صوتها لم يكن كلاماً مفهوماً، بل كان صراخاً مدوّياً، صدى لكلِّ دقيقة صمت حبسها فيها، لكلِّ إهانة ابتلعتها، لكلِّ لحظة قهر عاشتها في زنزانته، كانت تضربه بكلماتها، تعاقبه، تجلده بسياط اللوم وهو منكمش على السرير يغطي أذنيه برعب.

وفي ذروة صراخها، انشقَّ المشهد عن "رامي."

دخل مبتسماً ابتسامته القديمة الساذجة، وكأنَّ شيئاً لم يحدث. كان يحمل بين يديه رزمة من "المجلات القديمة."

تداخلت الصور أمامه.. صراخ أمال، ابتسامة رامي البلهاء، ظهرُ أبيه المغادر، الكرسي الفارغ، ووجه ليلى المشوه الذي يلوح في الزوايا..

دارت الغرفة به كإعصار..

تلاشت الأصوات لتتحوَّل إلى طنين حاد يثقب طبلة أذنه..

شعر بقلبه يتوقف عن النبض، وبروحه تنسحب من هذا الضجيج.

ارتخت أعصابه، وسقط جسمه ثقيلاً على السرير، مغشياً عليه، غارقاً في ظلام رحيم.. ظلام بلا مربعات، بلا ذكريات، وبلا ألم.

***

بعد مرور ستة أشهر...

في أروقة المستشفى، كان "وليد" يقف أمام سريره، بعد أن أتمَّ تجهيز حقيبته المكتظة بأغراض نصف عام من الغياب.

انفتح الباب ليدخل "محمد" وبصحبته "آمال" و"ريم."

لم يكن اللقاء صاخباً، بل اكتفوا بسلام هادئ يحمل في طياته مزيجاً من الفرحة الحذرة، والشفقة المكتومة.

حملوا حقائبه وهمّوا بالرحيل، سائرين في ممرات المستشفى وسط نظرات متعاطفة، وكلمات وداع دافئة من طاقم التمريض الذي رافقه في رحلة علاجه.

ركب وليد السيارة معهم، أسند رأسه إلى زجاج النافذة، وأخذ يراقب الطريق بعينين جائعتين للحياة. كان يدقق ويتابع كلَّ تفصيل يمرُّ

أمامه؛ حركة المارة، لافتات المحلات، وحتى ألوان الأشجار، بدت له المدينة متغيرة كثيراً عما تركها، أو ربما كانت روحه هي التي تبدلت.

لم تطُل الرحلة، فسرعان ما توقفت السيارة أمام بيته القريب من المستشفى.

بخطوات وئيدة ومثقلة بالذكريات، دخل وليد منزله، استنشق هواء البيت الذي افتقده، ومرَّ في الردهة لتتوقف عيناه أمام باب غرفة ابنته المغلق. نظر إليه للحظات بصمت، ثم تجاوزه ليكمل طريقه نحو غرفته.

فتح الباب ليجد عالمه الصغير كما تركه، لم تمسَّه يد التغيير. تجوَّلت عيناه في أرجاء الغرفة، حتى تسمَّرت فجأة عند طاولة المكتب.. هناك، كان يرقد حاسوبه المحمول (اللابتوب) مغلقاً في صمت.

ارتسمت على شفتيه ابتسامة ساخرة، مريرة، انسحب الجميع بهدوء، تاركين وليد يفرغ حقيبته، ويرتِّب ملابسه في خزانته ليتنفس بعض الخصوصية، لكن في تلك الأثناء، كانت هناك عاصفة أخرى تدور خلف الأبواب.

توجَّهت "آمال" بخطوات قلقة نحو غرفة "ليلى"، فتحت الباب بحذر لتجدها منكمشة في زاوية السرير، منهارة تماماً، والدموع تغسل وجهها في نوبة بكاء عنيفة ومكتومة.

اقتربت آمال بسرعة وجلست بجوارها، لترفع ليلى وجهها الباكي، وتنطق بصوت متقطع يخنقه قهر الشعور بالذنب:

"مش عارفة أرفع وشي في وشه.. كل اللي حصله ده بسببي.. أنا السبب".

لم تتردد آمال لحظة، مدت ذراعيها واحتضنتها بقوة، ضمتها إلى صدرها في محاولة لانتزاع هذا الجبل من على كتفيّ ابنتها المكسورة، ومسَّدت على شعرها بحنان بالغ، وقالت بنبرة حاسمة، يكسوها الدفء والمواساة:

"أنتي مش السبب يا ليلى.. مفيش حد لوحده بيشيل الشيلة دي.. كلنا كنا شركاء في اللي حصل".

بخطوات ثقيلة، كمن يسير على زجاج مكسور، اقترب وليد من باب غرفة ابنته "ليلى"، كان يُقدِّم رجلاً ويؤخر أخرى، يصارع خجلاً أبويّاً، وحزناً دفيناً أثقل كاهله، يخشى المواجهة بقدر ما يتوق إليها. رفع يده المرتجفة، وطرق الباب طرقات خافتة، وكأنه يستأذن للدخول إلى قلبها من جديد.

فتحت ليلى الباب..

وما إن التقت الأعين، حتى ذابت كلُّ المسافات، وسقطت كلُّ الدفاعات التي بنوها طوال تلك الأشهر. لم ينطقا بحرف واحد؛ فالكلمات كانت أعجز من أن تصف حجم المأساة. انهارا معاً في نوبة بكاء مريرة، بكاء يغسل الروح، ويعتصر القلب.

جذبها وليد إلى أحضانه بقوة، وعانقها عناقاً طويلاً، صامتاً. كان يشدُّ عليها، وكأنه يحاول أن يخبئها داخل أضلعه من قسوة العالم، وكانت دموعها على كتفه هي إعلان العفو الذي كان يحتاج إليه ليتنفس.

مرَّت الدقائق ثقيلة ودافئة، قبل أن يفكَّ وليد هذا العناق برفق. مسح على رأسها بحنان أخير، وابتسم لها ابتسامة باكية، ثم التفت مغادراً الغرفة.

لكنه لم يعُد إلى غرفته المنعزلة..

تجاوزها، وتوجَّه نحو نهاية الردهة، ليتوقف أمام الباب الخشبي المغلق.. باب "غرفة نوم الزوجية".

وقف أمامه للحظات، يتأمل هذا الحاجز الذي تحوَّل بمرور السنين إلى جدار عازل للجليد. تلك الغرفة التي أصبحت أشبه بـ "منطقة محرمة" لم تطأها قدماه، ولم يشارك "آمال" هواءها، منذ صرخة ليلى الأولى يوم ولادتها.

أمسك بمقبض الباب البارد، أخذ نفساً عميقاً وكأنه يغوص في أعماق ماضٍ سحيق، ثم أدار المقبض، ودفعه ببطء.

دخل الغرفة التي تحمل أسرار بداية القطيعة، ثم أغلق الباب خلفه بهدوء.

في مكان آخر، وعلى بعد شوارع قليلة من منزل وليد..

وصل "محمد" ووالدته "ريم" إلى بنايتهما السكنية، صعدا السلَّم في صمت، وما كاد محمد يضع المفتاح في قفل باب الشقة، حتى اهتز هاتفه في جيبه معلناً عن مكالمة فيديو عبر تطبيق "ماسنجر."

أخرج الهاتف، ونظر إلى الشاشة ليجد اسم والده.

فتح الخطَّ، ليظهر وجه الأب بملامح مرتاحة، وخلفية توحي باستعداده للسفر.

"عامل إيه يا حبيبي؟".

ردَّ محمد بهدوء، وهو يفتح باب الشقة لتدخل والدته:

"الحمد لله يا بابا.. رايح فين كده؟".

"رايح أعمل عُمرة لجدتك بهيرة الله يرحمها".

"دي العُمرة التاسعة، ولا العاشرة تقريباً من وقت ما اشتغلت في السعودية!".

"مش مشكلة.. المهم ربنا يتقبل".

"ربنا يتقبل يا حبيبي."

قالها محمد، وهو يغلق الباب خلفه.

وقبل أن ينهي الأب المكالمة، ألقى جملته الروتينية الباردة التي يرميها كفرض واجب:

"سلملي على والدتك.. مع السلامة".

أغلق محمد الخطَّ، ووضع الهاتف في جيبه.

التفت ليجد والدته "ريم" تخلع حذاءها بصمت.

تقدَّم محمد نحوها، وقف أمامها، وعيناه محملتان بعتاب متأخر، وسألها بصوت مكسور:

"إنتي ليه عمرك ما قولتيلي سبب طلاقك من بابا؟".

توقفت ريم للحظة، تهرَّبت من نظراته، وهي ترتِّب حقيبتها، وأجابت بنبرة تحاول وأد الحديث:

"ده فات زمن يا محمد.. هنقلب في القديم ليه؟".

لكنَّ محمد لم يتراجع هذه المرة، بل اقترب أكثر، وقال بمرارة ندم:

"على العموم.. خالي (وليد) حكالي لما زورته في المستشفى الشهر اللي فات. فتحلي قلبه وقالي على كل حاجة".

صمت للحظة ليبلع غصة في حلقه، ثم أكمل وعيناه تلمعان بالدموع:

"كان لازم تحكيلي من بدري يا أمي.. بدل ما عشت حياتي كلها مفكر إنك أنتي السبب في خراب البيت.. أنا مكنتش بحب أقعد معاكي، وكنت دايماً بهرب، وبحبّ أقعد عند جدتي (بهيرة) عشان كنت فاكرك أنتي الغلطانة!".

كانت كلماته كالسياط، لكنَّ "ريم" لم تبكِ، ولم تغضب، رفعت رأسها، ونظرت إلى الشاب الطويل الذي أفنت شبابها لتربيته، ومدَّت يديها الدافئتين لتمسك بيديها المرتجفتين، لتقاطعه بابتسامة أمومة حقيقية، طاهرة وخالية من أيِّ ضغينة:

"مش مشكلة يا حبيبي.. الشقتين كانوا قدام بعض، وأنت في الآخر اتربيت بيننا.. المهم إنك كبرت، وبقيت راجل".

في اليوم التالي، تبدَّلت أجواء بيت وليد الكئيبة لتنبض بالحياة من جديد. اجتمعت العائلة حول مائدة الغداء؛ وليد، وآمال، وريم، ومحمد، وليلى. كان الجوُّ دافئاً، يسوده ودٌّ أسريٌّ حقيقيٌّ افتقدوه لسنوات، وكأنَّ غيمة سوداء انقشعت أخيراً عن سماء هذا البيت، لتعيد إليه روحه.

بعد الانتهاء من الطعام، نهضت ليلى متجهة إلى المطبخ؛ لتعد الشاي للجميع، فلحق بها محمد بخطوات هادئة بحجة مساعدتها في حمل الأكواب.

وقفت ليلى ترتِّب الأكواب، ثم التفتت إليه بابتسامة تحمل امتناناً عميقاً، وقالت بصوت خفيض صادق:

"شكراً يا محمد.. شكراً على وقفتك جنبي الفترة اللي فاتت دي كلها".

لم يترك لها مجالاً لتكمل عبارات العرفان، فقاطعها بنبرة حازمة، وحنونة في آن واحد، وهو ينظر مباشرة في عينيها:

"بتشكريني على إيه يا ليلى؟ ده واجبي، ومفيش بينا شكر أصلاً".

ساد صمت قصير، التقت فيه النظرات وسط هدوء المطبخ. وفجأة، وبلا أيِّ مقدمات أو تمهيد، كسر محمد هذا الصمت بجملة واحدة، مباشرة، قلبت موازين اللحظة:

"تتجوزيني؟".

تسمَّرت ليلى في مكانها، وعجز لسانها عن الردِّ، اتسعت عيناها بذهول، واكتفت بأن التقطت صينية الشاي بيديها اللتين بدأتا ترتعشان بشدة، حتى أنَّ الأكواب كادت تصطدم ببعضها وتصدر صوتاً يفضح ارتباكها.

خرجت من المطبخ بخطوات متسارعة، وضعت الصينية على طاولة غرفة المعيشة دون أن تنظر في عين أحد، ثم هرولت نحو غرفتها، وأغلقت الباب خلفها، تاركة خلفها تساؤلات صامتة.

خرج محمد من المطبخ بخطوات بطيئة، ونظر إلى خاله وليد الذي كان يراقب الموقف بتعجب، وقال بنبرة جادة:

"خالي.. ممكن أقعد مع حضرتك دقيقتين على انفراد؟".

أومأ وليد برأسه، واصطحبه إلى شرفة المنزل بعيداً عن مسامع آمال وريم.

لم يمهِّد محمد للأمر كثيراً، بل دخل في صلب الموضوع مباشرة، وكرر على خاله طلبه بخطبة "ليلى"، على أن يتمَّ الزواج فور تخرجها في الجامعة.

لكنَّ ردَّ وليد جاء قاطعاً، سريعاً، ومحمَّلاً بمرارة شعور بالذنب لم يفارقه:

"طلبك مرفوض يا محمد.. أنت ابني زي ما ليلى بنتي بالظبط. مش مطلوب منك تشيل شيلة مش بتاعتك، ولا تعمل فيها المنقذ عشان خاطر خالك وبنته".

صُدم محمد من قسوة الردِّ، لكنه لم يتراجع، اقترب من خاله، وتحدَّث بصوت يحمل صدقاً لا يقبل التشكيك:

"إيه اللي بتقوله ده يا خالي؟ شيلة إيه؟ ومنقذ إيه؟ أنا بحب ليلى من زمان.. من وإحنا عيال، وعشان كده بعدت عنكم الفترة اللي فاتت، لحد ما أتخرج وأقدر أتقدم".

تغيَّرت نبرة محمد لتصبح أكثر شجناً وخوفاً:

"بس بعد اللي حصل.. بقيت مرعوب، حسيت إنها ممكن تضيع مني في أي لحظة، أنا مش.. فكر في كلامي، خد رأيها، وقولي يا خالي أنا مستني".

لم ينتظر محمد ردّاً من وليد الذي وقف مذهولاً أمام عاطفة ابن أخته النبيلة. أسرع محمد عائداً إلى الداخل، نادى أمه "ريم" بصوت يحاول إخفاء توتره، وهمّا بالرحيل معاً.

عاد الهدوء المربك ليخيِّم على الشقة.

جلس وليد وحده في الشرفة، ينظر إلى الفراغ، وكلمات محمد تتردد في أذنيه كالمطارق. كان عقله يغلي بصراع قاسٍ:

كيف يقبل لابن أخته أمراً، وتضحية، وحبّاً غير مشروط، وهو نفسه لم يمتلك شجاعة قبوله على نفسه منذ زمن؟!

بعد مرور أقل من عام...

كان رامي يقف بخُطا مثقلة أمام قبر أبيه، أخرج من جيبه ورقة قديمة، ومطوية بعناية، كان قد وجدها بين مقتنيات والده بعد وفاته. أخذ يقرأ سطورها، وعيناه تفيضان بالدموع، وكأنه يكتشف أباه، أو يقرأ رسالته، لأول مرة:

"لما بدأت أستوعب إني بقيت أب، وخلصت دوشة الولادة، قعدت معاك يا رامي وإحنا لوحدنا، مسكت إيدك الصغيرة، وجنب إحساسي بالمسؤولية، وإني لازم أبقى إنسان أحسن عشان تشوفني أب كويس، فكرت في حاجة تانية.. فكرت إن أبويا -الله يرحمه- أكيد عاش نفس اللحظة دي معايا. ساعتها حسيت إني كبرت، وإن النهاية قربت، رغم إني عارف إن ملهاش ميعاد.

بدأت أبص لدايرة الحياة.. مين فينا فاكر جده السابع؟ اللي أكيد جده التامن قعد معاه نفس القعدة دي، وخلف جده السادس.. وأكيد كان وقتها طاير من الفرحة لما بقى جد لجده الخامس!

رغم كل فرحتي بيك، آية واحدة بس اللي فضلت بترن في دماغي:
(اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ

وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ * سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ).

ساعتها عاهدت نفسي.. لو في حاجة واحدة هعلمها لابني تلخص الدنيا كلها، هعرفه إن إحنا هنا للعبادة وبس.. وإن واجبي أخليه أحسن مني علماً وخُلقاً، وأخد بإيده للجنة عشان ما يسقطش في الامتحان".

طوى رامي الورقة ببطء، وأعادها إلى جيبه، ثم مسح دموعه واستقلّ سيارته مسرعاً، ليتمكن من التجهز لمناسبة اليوم المهمة.

بمجرد وصوله إلى الشقة، استقبلته زوجته بابتسامتها الدافئة المعتادة، لكنها أخبرته بنبرة قلقة أنَّ ابنهما الصغير لم يحفظ الورد القرآني المحدد له، وموعد تسميعه مع الشيخ غداً.

توجَّه رامي نحو ابنه، وتقمصت ملامحه للحظة تلك الصرامة القديمة، وبصوت حادٍّ قال:

"معاك ساعتين بالظبط لحد ما نجهز.. لو ما حفظتش، مش هاخدك معايا الخطوبة".

استدار رامي معطياً ظهره لابنه، وتوجَّه نحو غرفته ليبدِّل ملابسه، لكنه في منتصف الطريق.. تسمَّرت قدماه؛ توقف تماماً، استدار، وعاد أدراجه نحو ابنه الذي كان يقف منكس الرأس. نزل رامي على ركبتيه

ليكون في مستوى نظر الطفل نفسه، وتغيرت نبرته تماماً لتصبح دافئة وحنونة، وسأله:

"أنت عارف إن أنا بحبك.. وعايزك تبقى أحسن إنسان في الدنيا، صح؟."

وما إن أومأ الطفل الصغير برأسه ببراءة، حتى جذبه رامي إلى صدره، واحتضنه بقوة شديدة.

في غرفته، كان "محمد" يقف أمام المرآة يضع اللمسات الأخيرة على أناقته. اقتربت منه والدته "ريم"، وضعت يدها بحنان بالغ على كتفه، وسألته بنبرة تحمل قلق الأم، وخبرة السنين: "أنت جاهز للخطوة دي يا محمد؟ جاهز للصراع اللي هتعيشه مع نفسك؟".

نظر إليها عبر المرآة، وردَّ بصدق، ويقين أذاب كلَّ مخاوفها:

"أنا بحبها يا أمي.. وأظن لو ما أخدتش الخطوة دي، هتعب أكتر طول حياتي".

كانت كلمات محمد البسيطة كالسهم الذي أصاب وتراً مدفوناً في أعماق ريم، ولامس جرحاً قديماً اختارت أن تخفيه طوعاً.

في منزل وليد، كانت الأجواء تنبض بحياة افتقدتها الجدران لسنوات. حالة من الارتباك المحبب، وتجهيزات على قدم وساق لاستقبال العائلة، والأصدقاء المقربين.

كانت "ليلى" بفستانها الرقيق تشرف بنفسها على كلِّ ركن في المنزل، متوترة وسعيدة، حتى تسمرت عيناها فجأة حين رأت خالها "محمود" الذي عاد للتو من السفر خصوصاً من أجل هذه المناسبة. ركضت نحوه وارتمت في حضنه لتبثه أشواقها وفرحتها.

على الجانب الآخر، وفي "غرفة نوم الزوجية" التي عادت إليها الروح والدفء، كان وليد يرتدي بدلته بمساعدة "آمال".

تنهَّد وليد، وهو ينظر إلى انعكاسهما معاً في المرآة، وقال بابتسامة هادئة:

"البنت كبرتنا يا آمال".

ردَّت آمال بغنج عفوي، وكأنَّ سنوات الجفاء لم تمرَّ قط:

"اتكلم عن نفسك.. أنا لسه صغيرة".

ابتسم وليد، واقترب منها ليطبع قبلة صادقة، وعميقة على جبينها، وهو يهمس:

"وزي القمر".

قبلةٌ خفق لها قلب آمال، وكأنها عروس تُزفُّ من جديد.

جاء الموعد، وامتلأ البيت بالعائلة، وتجمَّعت الوجوه في حلقات لم تلتقِ منذ زمن بعيد.

في شرفة المنزل، بعيداً عن صخب الاحتفال، كان يقف "محمود" وبجواره "ريم"، يتحدثان بهدوء عن قطار العمر الذي مرَّ بكليهما.

قال محمود بصوت يحمل ثقل السنين، وصدق المحبِّ:

"اتجوزت مرتين، وطلقت.. على أمل إني أنساكي، بس مفيش ولا واحدة قدرت تنسيني. ما تيجي ناخد الخطوة يا ريم؟ ابنك أهو على وشك يتجوز وبيبدأ حياته، إيه اللي مانعك دلوقتي؟".

ابتسمت ريم ابتسامة رضا، ممزوجة بشجن نَبيل، ونظرت إليه قائلة:

"مش كل حاجة في الدنيا بنعوزها بناخدها يا محمود.. أنا رضيت لنفسي إني أتحرم من حاجة بحبها، مقابل إني مجرحش ابني في السنِّ ده".

وجَّها نظرهما معاً من الشرفة نحو الشارع، يبتسمان للماضي الذي تسرَّب من بين أيديهما، راضيَين بما كتبه القدر، وبما اختاراه من تضحيات.

"يلا يا جماعة هنلبس الدبل!".

قاطعت آمال بصوتها المبهج لحظات التأمل، ليلتفَّ الجميع حول العروسين.

تراصَّ المعازيم لالتقاط صورة تذكارية تلخص كلَّ الحكايات.

في المنتصف وقف "محمد" و"ليلى" يشعان أملاً، وبداية جديدة.

على يمين محمد وقفت أمه "ريم"، وبجوارها طليقها "يحيى" (الذي حضر كأب رغم كلّ شيء)، وبجوارهم "رامي" يحمل ابنه، وتجاوره زوجته المنتقبة.

وعلى يسار ليلى وقفت "آمال"، وبجوارها "وليد" يمسك بيدها بقوة واعتزاز، ومعهما "محمود" وباقي الأقارب.

وقبل أن تومض كاميرا المصوِّر، جال "وليد" بنظره في الوجوه المحيطة به، وحدَّث نفسه في صمت:

"الآن اجتمعت ستة مربعات.. لم يجتمع مربعان بعد، لكني حتماً سأجتمع بهما قريباً".

ابتسم للكاميرا، والتقطت الصورة.. لتُطوى صفحة الألم، وتبدأ الحياة.

تمت بحمد الله

***